مطبوعات مكتبة مصر

السحار .. والفكر الاسلامي

بقلم

مأمون غريب

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

مقدمة

عرفت عبد الحميد جوده السحار عن قرب . وقد أتاحت لى هذه المعرفة أن أعرف الكثير من جوانب شخصيته ، كما أتاحت لى هـذه المعرفة أيضا أن أقرأ كل إنتاجه الأدبى والفكرى تقريبا .. وهـذه المعرفة بلا شك أعطتنى الخيوط العريضة لكتابة دراسة عن هـذا الأديب المفكر الذى أعطى الحياة الأدبية والفكرية الكثير ، بجانب ما أعطاه الحياة العامة بحكم عمله كرجل اقتصادى تولى العديد من المناصب الاقتصادية العامة كمدير إدارة الاستيراد والتصـدير ، ومستشار وزارة التجارة بالمملكة العـربية السعودية ، ومدير قطاع النقل والتجارة بالمؤسسة الاقتصادية ، ورئيس مجلس إدارة الشركة العامة للتجارة الداخلية ، وعضو مجلس إدارة المؤسسة الاقتصادية ، ومدير عام مؤسسة الحراريات ، ورئيس مجلس إدارتهـا ، ثم رئيسا لمجلس إدارة المؤسسة المصرية العامة للسينما والمسرح والموسيقى .

وكانت أول معرفة لى بالأديب الراحل بحكم عملى الصحفى . كنت يومها محررا تحت التمرين فى مجلة الجيل وأردت أن أكتب أول تحقيق صحفى لى مع الأدباء . واخترت موضوع هذا التحقيـق رسالة يكتبها الأدباء بعنوان « رسالة إلى ابنتى فى ليلة زفافها » . واتصلت به تليفونيا وكنت قد قرأت له « بلال مؤذن الرسـول » و « أبو ذر الغفـارى » ورواية « فى قافلة الزمان » . وقد أعجبت بكتاباته ، ولولا علمى أنه يعمل مديرا عاما لمؤسسة اقتصادية كبرى

لتخيلته فى زى رجل أزهرى . وعندما حدد لى موعدا للقائه كنت أتخيله إنسانا بحكم شهرته متعاليا ، جادا فيه سمات رجال الأعمال .. وبمجرد مقابلتى له تغيرت الصورة تماما ، فأنا أمام إنسان لا تفارق الابتسامة شفتيه ، حاضر البديهة ، سريع النكتة . وتلاشت المســافة بينى وبينه ، ومن يومها ونحن صديقان إلى آخر لحظات حياته التى انتهت بعد أن حقق أملا عزيزا إلى نفسه ، ودون أن يحقق أملا آخر كان من أحلى أمنيــاته أن يحققه . أما الأمل الذى حققه فهو تلك الموسوعة الضخمة التى كتبها عن ســيرة النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، متعرضا فيها للحياة التى كانت تسود العالم قبل الرسالة ، وما فيها من طغيان الفرس ، واســتبداد الروم ، وجهالة القبائل العربية ، إلى أن بعث محمد عليه الصلاة والسلام بشيرا ونذيرا ، والتى استطاع بدعوته الخالدة أن ينشر تعاليم أعظم الأديان فى العالم كله ، فتهدم هذه التعاليم قلاعا من الظلم ، وحصونا من الطغيان ، وتنشر أضواء حضارتها العظيمة لتمتد إلى أكبر مساحة فى عالمنا .. وما زالت إلى اليوم ترسل أضواءها لكل القلوب التى تستجيب للدعوة الطاهرة .

أما أمله الذى لم يتحقق ، فهو أنه كان ينوى كتابة موسوعة ضخمة فى عشرين جزءا كتلك التى كتبها عن السيرة ، حول ــ قيام الدولة الإسلامية واضمحلالها ــ وفى هذه الدراسة كان ينوى تصوير كيفية قيام الحضارة الإسلامية التى غزت القلوب والعقول ورفعت راية الحرية والعــدالة ، فكان المسلمون خــير أمة أخرجت للناس ؛ ثم اضمحلالها لما تخلى المسلمون عن دينهم ، ونسوا الله فنسيهم حتى أصبحوا فى ذيل الشــعوب ؛ ولكن العمــر لم يمهله ، ورحل عن دنيانا دون أن يحقق هذه الأمنية التى طالما ألحت عليه .

ولو كان كل الذى كتبه عبد الحميد جوده السحار هو كتابة السيرة ، لكان هذا وحده كافيا ليخلد اسمه كمفكر إسلامى ، كتب دراسة جادة واعية بأسلوب فى غاية الرشاقة بموضوعية المؤرخ وقلم الأديب ، ولكن الرجل بجانب دراساته الإسلامية المتعددة التى كتبها بأسلوب قصصى جذاب ، كقصصه عن أبى ذر الغفارى ، وسعد بن أبى وقاص ، وبلال مؤذن الرسول ، وأبناء أبى بكر الصديق ، وحياة الحسين ، كما كتب للأطفال قصص الأنبياء ، وقصص السيرة ، وقصص الخلفاء الراشدين .. بجانب كل هذا فقد كتب الأديب الراحل العديد من الروايات فى قالب عصرى متطور ، فقدم هذه القصص الطويلة : فى قافلة الزمان ، والشارع الجديد ، وقلعة الأبطال ، والمستنقع ، وأم العروسة ، وكان مساء ، وجسر الشيطان ، والنصف الآخر ، والسهول البيض .. بجانب العديد من المجموعات القصصية .. صدى السنين ، أرملة من فلسطين ، ليلة عاصفة ، فى الوظيفة ، همزات الشياطين !.

وهذا الجانب من إنتاجه الأدبى يدخله بلا شك فى قائمة كبار كتاب القصة فى الأدب المعاصر !.

ولكن ما الذى دفعنى إلى كتابة هذه الدراسة ؟

لقد هالنى حقيقة أن أجد الرجل الذى قدم كل هذا الإنتاج الضخم لم يشر إليه النقاد من قريب أو من بعيد ، ولا أدرى سببا لهذا التجاهل لأديب كبير أرسى قواعد الحياة الفنية فى بلادنا ، وأضاف إلى المكتبة العربية العديد من الدراسات الجادة الواعية ، كما أنه أسهم إسهاما إيجابيا فى إقامة حياة أدبية سليمة فى مصر بتشجيعه أدباء جيله على النشر والاتصال بالجماهير عندما كون لجنة النشر للجامعيين ،

التى نشرت لألمع نجوم الأدب فيما بعد .. نشرت لنجيب محفوظ ، وعادل كامل ، ومحمد عبد الحليم عبد الله ، وعلى أحمد باكثير ، ومحمود البـــدوى ، وأمين يوسف غراب ، وغيرهم من الكتاب الذين كانوا أعلاما للحركة الأدبية فى مصر ؟

هذا التجاهل جعلنى أتذكر على الفـــور الأديب الروسى العظيم أنطون تشيكوف ، عندما شبه النقاد بذباب الخيل الذى يضايقها فى أثناء حرث الأرض .. فعضـــلات الحصان تكون مشدودة كأوتار الكمان ، وفجأة تنقض الذبابة على كفل الحصان تطن وتلسع ، فيجفل الحصان ويحرك ذيله . فعلام تطن الذبابة ؟ من المحتمل أنها لا تعرف أنها ــ ببساطة ــ قلقة بطبيعتها وتريد أن تشعر بوجودها . ويخيل إلىّ أنها تقول : وأنا أيضا كائن حى ، ألا تعلم !.. انظر .. أنا أعرف كيف أطن ، وليس هناك من شىء أعجز عن الطنين حوله !

ويضيف تشيكوف قائلا :

لقــد مضى علىّ خمسة وعشرين عاما وأنا أقرأ ما يكتب حول قصصى ، ولا أستطيع أن أذكر أنى وجدت يوما فى هذه الكتابات نقطة واحدة مفيدة ، أو نزرا يسيرا من نصيحة طيبة . الناقد الوحيد الذى استطاع أن يؤثر فىّ كان تشكابيشيفسكى الذى تنبـــأ بأنى سوف ألقى حتفى مخمورا فى إحدى الحفر ...

منتهى السخرية من النقاد !

* * *

ولا زلت أذكر كلمـــة قالها لى ذات يوم عندما سألته ما رأى عبد الحميد جوده السحار فى عبد الحميد جوده السحار ؟ لحظتها كانت سحابة من الحزن على عينيه وهو يقول :

— إنه بعثر نفسه بلا مبرر . ففى الأدب كتب الأقصوصة والقصة الطويلة والسير وكتب الأطفال وكتب الرحلات ، وفى ميدان العمل اشتغل بالاقتصاد وبالتجارة وبالفن . ولم ينصف نفسه . كان عليه منذ اللحظة الأولى أن يتفرغ للأدب ، وللأدب وحده ، ولكنه شتت نفسه حتى قال عنه الأدباء إنه اقتصادى ، وقال عنه الاقتصاديون إنه أديب ، وقال عنه بعض القراء إنه معسم . وقال عنه البعض الآخر إنه كاتب جنس ، وهو نفسه حتى الآن لا يعرف حقيقة نفسه !

وهذا القول شبيه بقول نيتشه الفيلسوف الألمانى الكبير الذى ألف كتابه الأول عن « ميلاد المأساة من روح الموسيقى » ولم يلفت هذا الكتاب نظر أحد ، حتى إن نيتشه قال عنه : إننى أخشى ألا يقرأ علماء اللغة ذلك الكتاب لما فيه من موسيقى ، وألا يقرأه الموسيقيون لما فيه من علم ولغة ، وألا يقرأه الفلاسفة لما فيه من موسيقى وعلم ولغة !.

على كل حال فإن الذى دفعنى إلى كتابة هذه الدراسة المتواضعة ، أن تكون بداية لدراسات أكثر تمكنا وإلماما بفن هذا الفنان الأديب المفكر . يكفى أنها تضع خطوطا عريضة تحت أهم إنجازاته الفكرية .. أو على الأقل يكفى أن تكون إشارة إصبع نحو إنتاجه ، ليجد القارىء فى الإنتـــاج نفسه خير زاد لعقله وروحه ، بجانب أنى أعتبر هذه الإشارة من بعيد إلى إنتاجه الفنى ، باقة ورد من إنسان عرفه عن قرب .. وأعجب به كفنان وإنسان .. وسيظل يذكره على الدوام .

« مأمون غريب »

١

نظرة عامـــة

لعبد الحميد جوده السحار أكثر من خمسين كتابا ، ومن هنـا يصعب الإلمام بكل هذه الكتب كتابا كتابا .. فهذا يعنى أن تحتل هذه الدراسة مئات الصفحات . ولما كان الغرض من هـذه الدراسة هو رسم خريطة لأعمال الأديب الراحل يستطيع من خلالها القارىء أن يلم فى نظرة شمولية بأعماله ، فمن هنا لا بد أن نكشف هذه الأعمال ونجسدها حتى يتضح لنـا الخط الذى يربط إنتاجه الفكرى ، وتتضح لنا خريطة أعماله بطريقة سهلة مبسطة ، دون أن نغرق أنفسنا بأسلوب معقد ، أو اصطلاحات أدبية أو أكاديمية تبعدنا عن الغرض من هذه الدراسة السهلة المبسطة . والمدخل لهـذه الدراسة هو أن نعرف نظرة الفنان إلى الحياة . فإذا عرفنا هذه النظرة سهل علينا بعد ذلك أن نعرف كيف استمد الفنان إنتاجه الفنى ؛ لأن الإنتـاج ، أو الإبداع الفنى ، هو أولا وأخيرا ثمرة فلسفة المؤلف ، أو على الأقل نتاج نظرته إلى الحيـاة . لأن هذه الفلسفة ، أو هذه النظـرة التى يستمدها الفنان من الحياة ، ليست وليدة يوم وليلة ، ولكنها وليدة معاناة وتجارب وثقافة طويلة عريضة . من خلالها تتبلور هذه النظرة وتتضح قسماتها ، ثم تصبح حقيقة واقعة مجسدة فى الإنتاج الفنى لهذا الفنان أو ذاك . لهذا تختلف نظرات الأدباء والفنانين بعضهم عن البعض الآخر ، رغم أن الجميع ربما يعيشون فى بيئة متقاربة وعصر

واحد ، وفى ظل حضارة واحدة . ولكن الاختلاف يبدو واضحا بينهم لسبب بسيط جدا ، وهو أن مكونات هذا الأديب أو الفنان تختلف عن مكونات الآخر ، ونظرة هذا إلى الحياة تختلف عن نظرة الآخر . ومن هنا فإننا إذا عرفنا فلسفة الفنان التى استمدها من معايشته للحياة وتجاربها ، يسهل علينا أن نعرف الخطوط العريضة لإنتاجه .

والسحار فى كتاباته التاريخية كان يرى أنه يمكننا تفسير التاريخ تفسيرا روحيا ، وكانت وجهة نظره فى ذلك أننا لو درسنا تاريخ البشرية دراسة عميقة منذ فجر التاريخ حتى اليوم ، لوجدنا أن النهضات الحقيقية تقوم بعد إصلاح روحى . فحضارة بابل قامت على أسس روحية ، فلم تزدهر تلك الحضارة إلا على دعامة قوية من الدين ، ولعب الدين دورا خطيرا فى حضارة قدماء المصريين . وقد اضمحلت الحضارتان عندما تحول الدين من عامل مؤثر فى النفوس إلى مجرد طقوس .

وقامت حضارة الفرس على الدين الذى جاء به زرادشت . وإن قورش مؤسس الدولة الساسانية لم يفتح العالم إلا بفضل المؤمنين ، وبفضل الروح القوية التى أزكاها فيهم روح زرادشت .

وما قامت الحضارة اليونانية إلا على القيم الروحية التى بثها فلاسفة اليونان فى قلوب اليونانيين .

ولم تذهب كل هذه الحضارات إلا بعد أن ازدهرت فيها الماديات ، وبلغت قمة الترف بسوس الحضارات ، وإنه لولا الإسلام ما كانت هناك حضارة إسلامية .

وهذه النظرة هى التى جعلت فى إنتاج السحار ازدواجية ، فهو يكتب القصة الطويلة والقصيرة وأدب الرحلات بروح الأديب ، وهو

فى نفس الوقت يكتب القصة الدينية والبحث الدينى بدافع من نزوعه الشديد نحو الدين .. أى أننا نجد أمامنا السحار الأديب ، والسحار الكاتب والمفكر الإسلامى .

وهو فى المجال الأول قدم الكثير .

وهو فى المجال الثانى قدم الكثير أيضا .

حتى إن الذى يقرأ الأعمال الأدبية بما فيها من أخيلة وغوص فى أعماق الإنسان وهو يمارس تجاربه وقدره فى الحياة ، وما يتعرض له من انخفاض وارتفاع ، وما يعتريه من نزوة وما يلم به من أحداث ، وما يتعرض له وهو يواجه الحياة ، وما تبدو من الإنسان من فضيلة أو رذيلة ، من خير أو شر ، من قوة أو ضعف — وقد نجح السحار فى رسم هذه النماذج فى أعماله الفنية — يخيل للقارىء أن هذا المؤلف يختلف عن المؤلف الآخر ، عن السحار وهو يكتب عن حياة السلف الصالح ، وعن حياة نبى الإسلام وما فيها من نبل وعفة وطهارة . يخيل إلى القارىء عندما يقرأ الجانب الأدبى من أعماله أنه أمام فنان يرسم لوحاته بواقعية كأنه عاش حياة أبطاله نفسها . ويخيل إليه عندما يقرأ أعماله التى تتناول النواحى الدينية أنه أمام عالم تخرج فى الأزهر الشريف !

وقد حكى لى أنه فى إحدى رحلاته الاقتصادية عندما كان فى زيارة لأندونيسيا ، كان بعض الأندونيسيين يقبلون يده باعتباره أزهريا . وكان هؤلاء من الذين قرأوا له بعض أعماله الدينية المترجمة ، ومن بعض الذين درسوا فى مصر !

وحكى لى أيضا أنه سافر إلى غانا فى رحلة تجارية وكاد أن يفشل

فى مهمته الاقتصادية ، ولكن الأدب فتح له الأبواب ؟ كيف كان ذلك ؟ إنه يقــول :

« سافرت فى عمل يتعلق بالتجارة ودراسة الأسواق فى أكرا . وكان سفرى بعد الانتهاء من موسم الكاكاو وهو الوقت الذى ينشط فيه البيع فى الأسواق ، وقد تعذر على الاتصال بالتجار لانشغالهم فى تصريف منتجاتهم . وفى اجتماع ليلى بالفندق الذى أنزل فيــه التقيت بأحد التجار اللبنانيين ، ودار بيننا حـــديث عن الأدب ، وسألنى عن عباس محمود العقاد وعن آخر مؤلفاته فحدثته حديثـــا مستفيضا . وانتشر بين إخواننا السوريين واللبنانيين أن فى أكرا من يتحدث عن العقـــاد والمازنى والأدب العربى فإذا بأبواب إخواننا السوريين واللبنانيين تفتح فى وجهى ، وبفضل العقاد وإخوانه تمكنت من إنجاز عملى على خير وجه » .

وكما قلنا إن الإنتاج الفنى والفكرى يصبح نابعا من نظرة الإنسان ــ أو فلسفته ــ إلى الحياة ، وإذا علمنـــا أن هذه النظرة أو هذه الفلسفة جزء من تكوين شخصية الإنسان ، وأن شخصية الإنسان ترسم خطوطها الرئيسية فى سنى الطفولة المبكرة ، فإننـــا إذا تتبعنا طفولة كاتب ، فقد نستطيع أن نقترب أكثر من تلك النظرة التى لون بها فيما بعد إنتاجه الفنى ، أو هى التى دفعته بمعنى أدق إلى أن يسلك فى إنتاجه الأدبى الناحية الدينية والناحية الأدبية الخالصة فى نفس الوقت !

ولو رجعنا إلى طفولة عبد الحميد السحار لوجدنا أنه نشأ فى أسرة متدينة ، وأن والده التاجر كثيرا ما كان يجلس مع زملائه من التجـــار فى « سلاملك » المنزل ، وكان الحديث يدور حول الدين ،

وكانوا يقرءون كل يوم جزءا من سيرة ابن هشام أو فتوح الشام للواقدى ، وكان على عبد الحميد أو أحد أخويه أحمد وسعيد أن يقرأ بعض صفحات من هذه الكتب .. ومن هنا بدأ تعلقه بالناحية الدينية التى حفرت فى أعماقه منذ الطفولة .

أما عن الجانب الآخر من حياته فقد نبع أيضا من طفولته .. وقد حكى لى قصة حدثت له آنذاك . وهذه القصة غيرت من نظرته للحياة فيما بعد ، قال :

ـ قصة صغيرة حدثت لى وأنا فى مطلع صباى . كنت فى السادسة من عمرى ، تلميذا بمدرسة الروضة . وكثيرا ما أتذكر هذه القصة كلما جنح بى الخيال نحو الماضى .

كانت لى مدرسة كثيرة العطف على . كانت تجلسنى فى الصفوف الأمامية ، وإذا أحسنت الإجابة عن أحد الأسئلة كانت تقبلنى تشجيعا لى ، وكنت أظن قبلاتها انعكاسا لحبها لى .. كنت أغار عليها ، وفى يوم من الأيام أخبرنى أحد زملائى أن هذه المدرسة تحبه أكثر مما تحبنى ، فما كان منى إلا أن ضربته ضربا مبرحا . ولم يكن أمامه إلا أن يشكونى إلى المدرسة ، وأخذت المدرسة تسألنى عن السبب الذى من أجله ضربت زميلى ، وظلت تضيق على الخناق حتى أخبرتها بالحقيقة ، وأننى ضربته عندما احتدمت الغيرة فى نفسى . وارتسمت علامة استفهام على وجه المدرسة ، وابتسمت وهى تقول لى :

ـ إنك طفل كبير !

وبعدها لم تقترب شفتاها من جبينى !!

من هذه القصة الصغيرة تعلمت أشياء كثيرة : تعلمت أن التصريح بالحب قد يفقد الحبيب ، وأن النظرة قد تكون أقوى أثرا من كلمة

حب يهمس بها حبيب لحبيبه . فالنظرة قد تنم عن الحب أو الكره دون الحاجة إلى ترجمتها إلى كلمات .

ومن يومها وأنا أكره كلمات الغزل ، إننى أومن بالحب الصامت المنبثق من أعماق القلب ، فيصل بسر الحب إلى القلب الآخر ! .

ومن هنا يمكننا أن نعثر بسهولة على الخيط الذى جذبه فيما بعد إلى الكتابة الدينية متأثرا بما قرأ فى طفولته فى سيرة ابن هشام ، وإلى الخيال القصصى الذى استمده من طفولته وولعه الشديد بدخول السينما فى طفولته ومتابعته لقصصها . ومع مراحل نموه المختلفة ازداد تعمقه وازدادت قراءاته فى الجانب الدينى والجانب الأدبى فى نفس الوقت .. ومن هنا نلاحظ أنه فى إنتاجه الدينى كتبه بروح الأديب وسرده بطريقة الفنان وموضوعية المؤرخ .. كما أننا نراه فى إنتاجه الأدبى يحاول أن يصور الجوانب المشرقة فى حياة الإنسان على اعتبار أن الإنسان خلق من روح وجسد .. الروح تشده إلى عالمها العلوى ، والجسد يشده إلى الطين وما فيه من أوحال . وأن الواجب على الأديب أو الفنان عندما يتناول حياة الإنسان ألا ينسى هذه الحقيقة . فمن الواجب عليه عندما يصور الإنسان الغارق فى الرذيلة أن يصور الصحوة ، لحظة الإفاقة ، أن يرتفع الإنسان من عالم الطين إلى عالم أرحب وأوسع وأكثر نورا وإشراقا .. عالم الروح .

٢

الإنتـــاج الدينى

ما كتبه السحار فى الدين يعد عملا كبيرا . وهو فى هذه الكتابات لا تستهويه الكتابة لمجرد الكتابة ، أو لأنه يحاول أن يطبق طريقة كتابة القصة على سير عظماء الإسلام الذين تركوا بصماتهم فى التاريخ الإسلامى .. ولكنه اتخذ من القصة وسيلة يصف بها هذه الشخصيات ، ويحركها فى إطارها التاريخى ، ويقرب بخياله القصصى صور هؤلاء الأبطال ، وعلى رأسهم النبى العظيم محمد عليه الصلاة والسلام .

ونحن عندما نقرأ له «بلال مؤذن الرسول» مثلا ، نراه يرسم صورة حية للعصر وملابسات الحياة ، والظروف التى أدت إلى إيمان بلال ، وحبه الشديد لرسول الله ، وعطف النبى عليه وحبه له .. ثم يصور لنا شخصية هذا الصحابى الجليـــل وهو يتحمل أذى قريش بصبر عجيب ، وإيمان أعجب .. كما نراه فى جهاده فى سبيل الدعوة ، وبلائه العظيم فى مقاتلة المشركين .

وعندما نقرأ له « حياة الحسين » ، يأخذنا فى رحلة شائقة إلى طفولة الحسين ، وحب الرسول الكريم له .. ثم يصور لنا شخصيته وهو يدافع عن عثمان مع أخيه الحسن فى أثناء الفتنة التى اضطرمت فى العالم الإسلامى .. ويبدع فى تصـــوير رحلته إلى كربلاء حيث تخاذل أهل العراق عن نصرته ، وكيف ظل وحيـــدا مع أهل البيت يدافعون طغيان يزيد بن معاوية بتلك الشجاعة المنقطعة النظير .. إنه

وأهله يبلغون اثنين وسبعين ، بينما حشد لهم أكثر من أربعة آلاف جندى ، ويصف لنا هذه المعركة الخالدة التى لم تنته بمقتل الحسين رضى الله عنه وأصحابه فحسب .. بل امتدت آثارها إلى مئات السنين فأدت إلى معارك عنيفة قاسية ، وصراعات مريرة عبر التاريخ ، وانتهت بنهاية الحكم الأموى وتولى العباسيين الحكم . بل إن كل الدعوات سواء فى المشرق العربى أو المغرب العربى كانت تدور حول هـذه المشكلة .. إلى من تؤول الخلافة ؟ وكانت الدعوة الراجحة أن الخلافة لا بد أن تعود إلى آل بيت رسول الله . هذا هو أثر هذه المعـركة على المدى البعيد ، أما أثرها على المدى القريب فقد كان انتقام السماء سريعا . بعد عامين قامت ثورة فى المدينة المنورة ، وقابلها الأمويون بعنف وشراسة واستباحوا المدينة .. مدينة رسول الله ثلاثة أيام !! وبعد ثلاثة أعوام من حادثة كربلاء قامت ثورة فى الكوفة مطالبة بأخذ ثأر الحسين ابن بنت رسول الله بقيادة المختار بن أبى عبيد الثقفى ، داعية التوابين من طلاب ثأر الحسين .. وكانت دعوته أيضا أن يقتل كل من اشترك فى مذبحة كربلاء ، حتى إنه قتل مع جماعته فى موقف واحد مائتين وثمانية وأربعين .. وقـُتل عبد الله بن زياد وأُحرق ، وقتل شمر بن ذى الجوشن وألقيت أشلاؤه للكلاب !

وقامت ثورة أخرى فى الحجاز على يد عبد الله بن الزبير .. هذه الملحمة يصورها لنا عبد الحميد السحار بأسلوبه الرشـيق فيجعلنا نحلق فى أجواء هذا العصر ، ونشاهد الصراع بين الحق والباطل ، بين العدل والظلم . وأى مشهد هذا الذى يطل علينا عبر التاريخ البعيد ، يوم أُخذ آل بيت الرسول العظيم سـبايا إلى يزيد بن معاوية ، وفى مشهد مأساوى جىء برأس الحسين فوضع بين يدى يزيد ، وراح

ينكت بقضيب بين ثنيتيه ، فيرتفع البكاء والنحيب ، ، وتنتفض السيدة زينب أخت الحسين ثائرة :

ــ « أظننت يا يزيد أنه حين أُخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء ، فأصبحنا نساق كما تساق الأُسارى أن بنا هوانا على الله وأن بك عليه كرامة ؟ وتوهمت أن هذا لعظيم خطرك ، فشمخت بأنفك ونظرت فى عطفيك جذلان فرحا حين رأيت الدنيا مستوثقة لك ، والأمور متسقة عليك . إن الله إن أمهلك فهو قوله :

« ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مُهين » .

أمن العدل يا ابن الطُلَقاء تخديرك بناتك وإماءك (إلزامهن الخدور) ، وسوقك بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله كالأسارى قد هتكت ستورهن ، وأصحلت أصواتهن ، مكتئبات تجرى بهن الأباعر ، وتحدو بهن الأعادى من بلد إلى بلد ، لا يراقبن ولا يؤوين ، يتشوقهن القريب والبعيد ، ليس معهن قريب من رجالهن. فلئن اتخذتنا فى هذه الحياة مغنما ، لتجدننا عليك مغرما حين لا تجد إلا ما قدمت يداك .. تستصرخ بابن مرجانة (عبيد الله بن زياد) ويستصرخ بك ، وتتعاوى وأتباعك عند الميزان ، وقد وجدت أفضل زاد تزودت به قتل ذرية محمد صلى الله عليه وسلم وآله . فوالله ما اتقيتَ غير الله وما شكوتُ إلا لله ، فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا يرحض عنك عار ما أتيت إلينا أبدا » .

إن المؤلف يبرز لنا هذه الأحداث الدامية فى ثوبها التاريخى ، ويقرب إلينا مشاهد التاريخ البعيد الذى ظل يترك ظلاله عبر العصور ، وما زلنا إلى اليوم نرى من يحتفل بيوم العاشر من المحرم

كذكرى لذلك اليوم المأسوى الحزين الذى أهدر فيه دم الحسين !

ويختم المؤلف دراسته بعودة آل البيت إلى المدينة .. ويرسم لنا هذه اللوحة الحزينة :

« ورأى نساء أهل البيت خروج أهل المدينة إليهن فى السواد ، فصرخت زينب وأم كلثوم وباقى النساء ، وارتفع العويل والصياح ، وكثر النوح والبكاء ، وهتف أكثر من صوت :

ـ واحسيناه ، واحبيباه !

وما صك أصوات العويل آذان بنت عقيل بن أبى طالب وأم هانىء ورملة وأسماء بنات على حتى خرجن يندبن الحسين ، وصاحت بنت عقيل :

ماذا تقـــولون إن قال النبى لكم
ماذا فعلـــتم وأنتم آخـــر الأمم ؟
بعترتى وأهـــلى بعـــد مفتقـــدى
منهم أســـارى ومنهم ضرجوا بدم

وانطلق الركب حتى أناخ بباب مسجد الرسول ، فدخل الناس وفى القلب حسرة وفى القلب لوعة . ووقفت أم كلثوم أمام قبر النبى تبكى وتقول :

ـ السلام عليك يا جداه ، إنى ناعية إليك ولدك الحسين .

* * *

فإذا تجولنا مع الكاتب الراحل فى دراساته الدينية ، فإنه يستوقفنا كتابه « وعد الله وإسرائيل » . إنه فى هذا الكتاب الصغير يدرس مشكلة حيوية وهامة جدا ، فاليهود ملأوا الدنيا طنينا بأن فلسطين هى وطن أجدادهم ، وأن الله وعدهم أرضا تمتد من النيل إلى الفرات . ومعنى هذا الزعم الدينى الذى يلقنونه لأطفالهم ويحاولون به إقناع

العالم بهذا الحق الموهوم أن أطماع إسرائيل لا تقف عند حد ، وأن أهدافهم ليست مجرد اغتصاب فلسطين ، ولكن اغتصاب أراض عربية تضم أجزاء من العراق والأردن وسوريا ومصر . بل إن أطماعهم تمتد إلى المدينة المنورة أيضا على اعتبار أن اليهود سكنوا فى يثرب فترة من الزمن ، إلى أن طردهم الرسول عليه الصلاة والسلام من الجزيرة العربية كلها نتيجة لخداعهم وتآمرهم على الإسلام ونبى الإسلام .
هذه إذن ليست مجرد أساطير تحوم فى العقل اليهودى ، ولكنها خطة مدبرة من قبل اليهود لابتلاع العالم العربى . واستنزاف دمه نقطة نقطة إلى أن يتم لهم السيطرة على أقدار المنطقة العربية كلها .

ربما نسمع من يقول إنه يجب علينا ألا ننقـــاد إلى مجرد أساطير رسخت فى العقل اليهودى ، وينبغى ألا نلقى بالا إلى تلك الأوهام ؟!

ولكن الحقيقة تقول إننا إذا سرنا وراء هـــذا الرأى واستهترنا بأهداف إسرائيـــل التوسعية ، نكون نحن الذين نعيش فى وهم لا اليهود . فالذى كان يسمع عن نشاط اليهود عبر القرون لإقامة وطن قومى لهم ، كان يسخر من هذه المحاولات وهو يرى اليهود فى عواصم العالم مشردين فى حوارى مغلقة عليهم ، كما يشعر بالسخرية منهم وهو يشاهد المذابح التى أقيمت لهم عبر القرون على يد الفرس والرومان وفى إسبانيا وعلى يد النازى ، ولم يجدوا تسامحا إلا فى ظل الراية الإسلامية ! ومع ذلك فقد عقـد اليهود مؤتمر بازل ووضعوا النواة الأولى لإقامة دولة إسرائيل ، واستطاعوا أن يحققوا بالمثابرة والخداع ، ومحاولة تجســيد الأســاطير إلى واقع ، حتى أصبحت إسرائيل عظمة فى حلق الأمة العربية ، وجسما غريبـا وسط الكيان العـــربى .

ومن هنا يجب التصدى للفكر اليهودى بما فيه من خرافات حتى يعلم العالم الحقيقة عارية من كل زيف ، وحتى يعرف العالم العربى الكثير عما يجرى فى هذا الفكر الصهيونى ، وخطورة الأخطبوط الذين يحاولون أن يلفوه حول عنق الأمة العربية !

ومن هنا جاءت أهمية كتاب « وعد الله وإسرائيل » لعبد الحميد جوده السحار . إنه يجيب عن هذا التساؤل العام : هل وعد الله حقيقة إسرائيل بأرض فلسطين ؟

إنه يقدم الكتاب بتلك الآية الكريمة :

ــ « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ، ولتعلن علوا كبيرا » .

ويحاول المؤلف أن يعرف الفترتين اللتين تم فيهما لليهود هــذا الفساد ، ويستعرض آراء المفسرين ، ولم يجد فى هذه التفسيرات ما يتفق مع الحقائق التاريخية ، فبماذا خرج المؤلف من هذا البحث ؟

« فوجدت أن اليهود قد عادوا مرة واحدة فى تاريخهم الطويل إلى القدس بعد أن حملهم بختنصر ملك العــــراق أسرى إلى بابل ، وكانت تلك العودة أيام قورش مؤسس الأسرة الساسانية الفارسية ، وقد ظلوا بهــــا إلى أن طردهم منها الرومان واستمروا مشردين فى الأرض ، ولم يدخلوا بيت المقدس مرة ثانية إلا بعد العدوان الثلاثى الأخير فإنهم فى عدوان سنة ١٩٥٦ لم يدخلوا المسجد الحرام .

إن الآيات الكريمة لا يمكن أن تفسر إلا بعودة إسرائيل إلى القدس ثم بطردهم منها ليكون فى ذلك إذلال لهم وإمعان فى الهوان . وقد عادوا إليها هذه المرة فأصبح على العرب أن يجمعوا صفوفهم على قلب رجل واحد وأن يوحدوا قبلتهم وأن يطهروا نفوسهم وأن ينصروا

الله لينصرهم ليكونوا أهلا للنصر الكبير الذى وعدهم به ربهم فى كتابه الكريم » .

ونضرب مثلا من تلك الأمثلة التى ساقها المؤلف .. هـذا المثل يعطى صورة لأخلاقيات اليهود ، وكيف أنهم لا يتورعون عن طريق الحيل ، والجنس ، والرشوة ، والخداع أن يفعلوا أى شىء لتحقيق أهدافهم .. والمثل هو قديسة إسرائيل (إستر) ، هذه القديسة التى سجلوا سيرتها فى التوراة ، ما هى إلا غانية لعوب لعبت دورا خطيرا فى تاريخ اليهود . كانت رائعة الحسن شديدة الأسر ، عيناها تلمعان ببريق يخطف القلوب ، وشعرها الأسـود الجميل المسترسل خلفها يزيدها روعة وحسنا ، كانت فى السابعة عشرة من عمرها . دخل عليها عمها مردخاى الذى كان حارسا من حراس ملك فارس (أخشويرش) ، وشد بجمالها الأخاذ ، ودارت فى رأسه الأفكار : لماذا لا يستغل جمال ابنة أخيه هذه فى خدمة بنى إسرائيل ؟ لماذا لا يقدمها لملك الملوك ؟ إن الملك مولع بالنساء . إن له فى كل يوم امرأة جديدة . لماذا لا يستغل إستير فى السيطرة على القصر بما فيه ومن فيه ؟ واستطاعت إستير أن تصل إلى قلب الملك ، وأن تتسبب فى طلاق زوجته ، وأن تصبح هى الآمرة الناهية فى القصر ، ولم تغفر لوزير الملك هامان أن يتجرأ ويحد من طغيان اليهود فى المملكة .. إذ دخل الوزير على الملك ذات يوم وقال له :

— إن اليهود الذين وفدوا إلى بلادنا سبيا من أورشليم قد عظم نفوذهم فى البـلاد ، أثروا واغتنوا وأصبحوا أسياد المال المتحكمين فى الأسواق والأقوات والأرزاق ، إنهم يتلاعبون بالأسعار ويمتصون دم الشعب يا مولاى . لو كان نفوذهم قد اقتصر على دنيا المال لهان

الخطب ، ولكن نفوذهم تغلغل فى كل مكان ، علموا الرؤساء الرشوة وبذروا فى قلوبهم الطمع وغرسوا فى النفوس الأحقاد ليشغل الشعب بأحقاده عنهم ، إنهم لو قدروا على أن يقوضـــوا عرشكم تحتكم الفوضوه .

واستطاع أن يستصدر أمرا من الملك بأن يتخلص من اليهود .. وعلمت إستير بهذا الأمر وما يريد وزير الملك أن يفعله باليهود فأوقعت بين الملك وبين وزيره ، وأقنعت الملك بأن الوزير يحاول أن يراودها عن نفسها ، ودبت الغيرة فى قلب الملك الذى أمر بإعـــدام وزيره . وتحولت إستير إلى حاكمة بأمرها على المملكة الفارسية كلها ، وأصدر الملك أمرا بالعفو عن اليهود ، وتحركت فى إستير روح الشر فراحت تحرض اليهود على التنكيل بأهل البلاد لتنزل الرعب بقلوبهم فتمكن لأهلها فى الأرض ، فقام فى مملكة آخشويرش عهد من الإرهاب فى ظل إستير ومردخاى . وراح مردخاى يقـــدم إلى الملك أسرابا من العذارى ليشغله باللذة عن المظالم الواقعة فى ملكه ، فصارت المملكة الفارسية الهائلة الممتدة من الهنـــد وفارس إلى كوش مرتعا خصبا لليهود ، فرضوا عن إستر وقدســـوها ودونوا قصتها فى التـــوراة وصارت إستر القديسة !!

* * *

وبعد أن يطوف بنا المؤلف فى رحلة شائقة للغاية تصف الدور الذى لعبه اليهود فى مختلف العصور ، يأخـــذنا إلى الدروب التى سلكها اليهود للتأثير على الفكر البشرى . فالعالم كله اليوم قد تأثر بنظرية ماركس ، الدول التى اعتنقت الشيوعيـــة والدول التى لم تعتنقها ، بل والدول التى ناهضتها . فقـــد قام التنظيم الاقتصادى

والاجتماعى والفكرى والسياسى على أساس أن الحياة المـــادية هى الأصــــل وهى حقيقة الحياة ، ولم يصـــادر الدين فى بعض الدول الشيوعية وفى كل الدول المناهضة للشيوعية ، ولكن لم يعد للدين دور فعال فى حياة البشر .

وعن مدى تأثير ماركس فى التاريخ يقول المؤرخ الشهير أرنولد توينبى :

ــ أحل ماركس الحتمية التاريخيـــة معبودا له محل يهـــوه إله إسرائيل ، وجعل من البروليتاريا الداخلية للعالم الغربى شعبه المختار مقام اليهود ، وجعل من ديكتاتورية البروليتاريا مملكة المسيح ، وقد برزت السمات اليهودية من خلال هذا الرداء المهلهل .

وقال المؤرخ العالمى توينبى أيضا فى مختصر دراسته للتاريخ :

ــ ومهما يكن من أمر فإنه يظهر كما لو أن المرحلة الدينيـــة فى تطور الشيوعية قد تكون سريعة الزوال . ومصداقا لذلك يبدو أن شيوعية ستالين القومية المحافظة قد هزمت فى الميدان الروسى شيوعية تروتسكى الثورية الدولية ، فلم يعد الاتحاد السوفيتى ــ والحالة هذه ــ مجتمعا خارجا على القانون ناشزا عن التعامل مع بقية العالم بأسره .. وعادت روسيا إلى سلوك السبيل الذى كانت الإمبراطورية الروسية تسلكه من قبل عهد بطرس أو نيقولا : دولة عظمى تختار حلفاءها وأعداءها وفقا للأسس القومية وبصرف النظر عن الاعتبارات المذهبية .

إلى آخر كلام هذا المؤرخ العالمى .. غير أن أديبنا الراحل يرى أنه سواء أكانت شيوعية الاتحاد السوفيتى قد مالت إلى اليمين كما يقول الأستاذ توينبى ، أم مال جيرانها إلى اليسار ، فقد نجح ماركس

فى أن يزعزع إيمان البشرية ـ كما تهـــوى اليهودية العـــالمية وكما تخطط ـ ولقن الناس أن القيم ليس لها وجود ذاتى ، إنما هى انعكاس للأوضاع الاقتصادية ، وليس لها ثبات لأن مصدرها هو الأوضاع الاقتصادية ـ دائم التغير ـ ثم هى حتمية التطور فلا يمكن إمساكها على وضع معين مهما حاول المفكرون ورجال الدين !

ويستعرض لنا المؤلف بعد ذلك كيف سيطرت آراء فرويد وهو أيضا يهودى على أفكار الناس بما صوره بمغالاة عن الجنس ، وتأثيره على تصرفات الإنســـان .. وهى محاولة لتسريغ البشرية فى الوحل ، ولهذا نرى فى كتاب بروتوكولات حكماء صهيون :

« يجب أن نعمـــل لتنهار الأخـــلاق فى كل مكان لتسهل سيطرتنا ... إن فرويد منا وسيظل يفرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شىء مقـــدس ، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية وعندئذ تنهار أخلاقه » .

كما نرى أيضا اليهودى الثالث دوركايم يحمل معاول الهدم ليدك كل القيم التى كان يفيض بها علم الاجتماع . فراح يؤكد أن الحياة الاجتماعية هى التى تشكل مشاعر الفرد ، وعليه فلا يجوز أن نفسر الحياة من نفسية الفرد كما يصنع علم النفس ، وإنما ينبغى أن نفرق بين الظاهرة النفسية والظاهرة الاجتماعية .

وراح دوركايم يقول إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد الذين يجبرون على الخضوع لها فى كل لحظة من لحظات حياتهم .

ويتسلل دوركايم فى هدوء إلى هدفه ، إلى تقويض الاعتقاد فى الدين وفى الأخلاق فيقول :

« إن بعض العلمـــاء يقول بوجود عاطفة دينيـــة فطرية لدى الإنسان ، وبأن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء وغير ذلك من العواطف ، وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو ، ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية فى الإنسان » .

وراح علمـــاء اليهود ــ وهم متعصبون لدينهم يشـــنون حربا لا هوادة فيهـــا على الدين والأخلاق والتقـــاليد باسم « العلم » و « البحث العلمى » لتحقيق خطة العالمية اليهودية .

وراح عبد الحميد جوده السحار يتابع فى دراسته تلك الشائقة ، مدى ما حققه اليهود من إفساد كل القيم فى العالم متخفين وراء العلم تارة ، ومسربلين بالخداع تارة أخرى ، إلى أن حققوا بعض أحلامهم فى فلسطين ، ولكن آمالهم سوف تتبدد ، وعلينا أن نعمل على أن نحقق منهج الله ، وأن نعمل على أن تعلو كلمة الله فى الأرض ، وأن نسلم منهج الله زمام أمورنا ، وأن نعمل ونجتهد ، وأن نبذل العرق والدم ، فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

* * *

هذه صورة سريعة للأفكار التى قدمها عبد الحميد جوده السحار وتصوره الدينى فى أعماله وإنتاجه الذى كان يتسم بالاجتهاد ، ومحاولة رسم صورة سليمة لما تناوله من موضوعات إســـلامية ، إلا أن أهم أعماله بلا شك هى تلك الدراسة القيمة التى كتبها فى عشرين جزءا تحت عنوان « محمد رسول الله والذين معه » والتى سنتناولها فى الفصل القادم .

٣
العـــالم قبل الإســـلام

ما أكثر ما كتب عن نبى الإسلام فى الشرق والغرب على السواء .. بعض هذه الكتب تناول السيرة بأسلوب موضوعى محايد ، وبعضها الآخر ملأ السيرة بالأساطير والأكاذيب فكانت مما أساء إلى الدين الإسلامى . فهى لم تخدم قضية ولم تحقق هدفا ، إلا إذا تصورنا أن بث الأساطير والادعاءات والافتراءات هدف فى حد ذاته ، الغرض منه الطعن فى الإسلام والنيل منه !

وسيرة النبى عليه الصلاة والسلام قدوة للمؤمنين ولغير المؤمنين على السواء . ومن هنا كانت أهمية وجود دراسات جادة ، مؤلفوها على درجة كبيرة من النضج الدينى ومن النضج الثقافى . فيجب أن يكون مؤلف السيرة ملما بالفلسفات المعاصرة والقـديمة ، وأن يكون كذلك ملما بالأديان وخصوصا ما يتعلق بالأديان المقارنة .. هذه الأسلحة التى يتزود بها مؤلف السيرة هامة للغاية ، وإلا أصبح أقرب إلى قائد السفينة الذى يقودها بلا بوصلة تحـدد له الهدف الذى يريد أن يصل إليه .

لهذا فقد ذعرت وأنا أقرأ بعض الكتب التى تناولت حياة النبى عليه الصلاة والسلام ، والتى كتبها بعض الأدباء الكبار .. فإن هؤلاء الأدباء كثيرا ما استسلموا بحكم جنوح الخيال عندهم للأساطير التى تناولتها كتب السيرة ، بغرض إضفاء الخيال الفنى على ما يكتبون ، وبالتالى ابتعدوا بكتاباتهم تلك عن تحقيق هدف نبيل .. هو كتابة

السيرة بأسلوب رشيق العبارة وفى بناء فنى متكامل . ثم كتابة هذه السيرة بموضوعية يقبلها العقل بعيدة عن شطط الخيال !

فالسيرة ليست مجرد رحلة حياة محمد عليه الصلاة والسلام . وليست مجرد سرد لأحداث هذه الحياة ، وإنما السيرة هى النموذج المثالى لإنسان بلغ قمة المثالية فى طفولته وفى رجولته ، وعندما أمره الله سبحانه وتعالى بتبليغ الرسالة ، وفى اضطهاده من أجلها ، وفى حروبه الطويلة العريضة التى خاضها من أجل هذه الدعوة العالمية بلا كلل ولا ملل ، ولا خوف ولا رهبة إلا من الله .

ولو كانت دعوة محمد عليه الصلاة والسلام من عند غير الله . لتخاذل عن دعوته وتركها بعد هذا العذاب الذى ذاقه من سفهاء مكة والطائف ، وما فرض عليه من حصار ومن ضغوط لا يمكن لبشر أن يتحملها مهما كانت طاقته ومهما كان طموحه .. هل يمكن لإنسان أن يتحمل ما تحمله الرسول العظيم عندما خرج إلى الطائف لعله يجد فيها أنصارا لدعوته بعد أن خذلته قريش .. وإذا بزعماء الطائف يقولون له بسخرية :

ـ ألم يجد الله غيرك يرسله ؟

ولم يكتفوا باستهزائهم به بل أرسلوا سفهاءهم عليه يرمونه بالأحجار . وتحت ظل شجرة يرتاح الرسول العظيم وهو يرى قدمه تنزف دما ، وترتفع عيناه إلى السماء بدعاء يدل على عمق ذلك الشعاع الذى يربط بينه وبين الله . كل كلمة من هذا الدعاء مليئة بالإيمان العميق والإخلاص الصادق :

ـ « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس .

يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، إلى من تكلنى؟
إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟
إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى .
ولكن عافيتك أوسع لى .

أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بى غضبك ، أو يحل على سخطك .

لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

هذه المشاعر الجياشة العميقة التى أرسلها الرسول الكريم فى ساعة تخلى عنه فيها الجميع .. أليست أجمل معزوفة يمكن أن يعزفها بشر فى دنيا الإخلاص والإيمان ؟ أليست أجمل أنشودة يمكن أن يترنم بها إنسان ؟ وهل يمكن لأديب مهما شط به الخيال أن يرسم صورة بيانية كتلك الصورة التى رسمتها مشاعر محمد الصادقة ؟

وهل يمكن لأى فنان تشكيلى أن يصوغ لوحة كتلك اللوحة التى تراها فى لقطة من موقف عظيم من مشاهد ومواقف عظيمة للرسول الكريم ؟ .

لهذا قلت إنه لم يبهرنى بعض ما كتبه أدباؤنا فى السيرة لأنهم انساقوا وراء الخيال الأسطورى ، كما أن هناك بعض الكتب الأخرى التى كتبت عن السيرة ولكن بأسلوب جاف لا يدفع القارىء إلى مواصلة القراءة !

فرسالة محمد عليه الصلاة والسلام هى آخر رسالات السماء ، والله سبحانه يقول فى ذلك :

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » .

وهذه الرسالة العامة لم تتحقق لنبى أو رسول قبله ، فموسى

أرسل إلى بنى إسرائيل ، ولم يكن هدفه من ذهابه إلى فرعون مصر إلا أن يرسل معه بنى إسرائيل .. قال موسى وهارون :

« إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل » .

وعيسى عليه السلام اقتصرت دعوته على فلسطين ، وخاصة إلى خراف بنى إسرائيل الضالة ، على حد التعبير القديم .

ومن هنا كانت رسالة محمد هى خاتمة الرسالات ، وما دامت هى الرسالة الأخيرة فقد تكلف الله سبحانه وتعالى بالحفاظ عليها وصونها ، وتعهد بالحفاظ على القرآن الكريم الكتاب الأول للإسلام :

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

ومن هنا وجدنا أن محبة هذا الرسول إنما هى من محبة الله ، وطاعته من طاعة الله ، وعصيانه عصيان لله .

« قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين » .

فالرسول هو مبلغ الرسالة ، وخلقه هو القرآن ، ومن هنا كانت سنة النبى عليه الصلاة والسلام تشريع مقدس : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

ومن هنا تكون كتابة السيرة من الصعوبة بمكان ، لأنها لا بد أن تتحرى الصدق وأن تزيل ما علق بالإسلام من إسرائيليات دسها اليهود والمستشرقون على حد سواء .

ومن هنا يكون التصدى للكتابة فيها يحتاج إلى ملكات خاصة ، فلا يكفى الكاتب أن يكون قارئا نهما ، أو دارسا للدين الإسلامى والفقة والتفسير ، ولكن يجب أن يكون بجانب ذلك صاحب أفق واسع ، وثقافة شاملة يستطيع من خلالها أن يميز الصدق من الكذب .

ويكفى أن تعرف كيف كان السلف الصالح يمشى آلاف الأميال ليتحرى صدق حديث معين .. هـذا الشغف العظيم فى البحث عن الحقيقة كان لتنقية الإسلام من أية شائبة يمكن أن تعلق به ، أو على حد تعبير أبى الحسن الندوى : لقـد تدفق سيلهم من بلاد العجم ـ يقصد الباحثين عن الحقيقة فى الإسلام ، حقيقة صحة الأحاديث النبوية ـ وقد ملكت قلوبهم وعقولهم الرغبة الشـديدة فى جمع الحديث ، وشغفوا به شغفا حال بينهم وبين الشهوات ، فطاروا فى الآفاق ، ونقبوا فى البلاد فى البحث عن الروايات المختلفة والأسانيد الصحيحة .

ويكفى أن تعرف أن رجلا مثل أبى الحاتم الرازى قال :

ـ « أول ما رحلت أقمت سبع سنين ، ومشيت على قدمى زيادة على ألف فرسخ ، وخرجت من البحرين إلى مصر ، ثم إلى الرملة ماشيا إلى طرسوس ولى عشرون عاما » .

أو على حد تعبير الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر : إنه لمن المعروف أن عناية سلفنا الصالح لم تكن موجهة إلى جمع الحديث وتدوينه فحسب ، وإنما تعدت ذلك كما يقـول الأستاذ الجليـل أبو الحسن الندوى ـ إلى الوسائط التى وقعت فى رواية الحديث ، وهم الرواة الذين رووا هذه الأحاديث ، فعنوا بمعرفتهم ومعـرفة أسمائهم وأسماء آبائهم وحوادث حيـاتهم وأخلاقهم ومكانتهم فى الأمانة والصدق والحفظ ، وهكذا أصبح الذين اتصلوا بالشخصية الكريمة التى وعد الله لها الخلود وبقاء الذكر وانتشار الاسم « ورفعنا لك ذكرك » أصبح الذين اتصلوا بها موضوع الدارسين والباحثين ، وخرجوا من زوايا الخمول واستحقوا الحياة والاشتهار ، وأصابهم

فيض من حياة هذه الشخصية الخالدة فحيوا وظهروا واحتفظ التاريخ بأسمائهم وأحوالهم ، ورآه حقا على نفسه . وهكذا ظهر علم أسماء الرجال فى عالم الوجود . وكان من مفاخر هذه الأمة التى لا تشاركها فيها أمة من الأمم .

قال الدكتور اسبرنجر فى مقدمته الإنجليزية لكتاب « الإصابة فى أحوال الصحابة » للحافظ بن حجر العسقلانى ما ترجمته :

ـــ « لم تعرف أمة فى التـــاريخ . ولا توجد الآن أمة على ظهر الأرض ، وفقت لاختراع فن من أسماء الرجال . . الذى تستطيع بفضله أن تقف على ترجمة خمسمائة ألف من الرجال » .

وهذه الأمثلة الغرض منها أن نأخذ فكرة عن أن تناول حيـــاة الرسول وسنته وأحاديثه عمل ليس سهلا ولا هينا . ولا مجرد سرد حياة ، إنما هو تحرى الصدق التاريخى على ضوء دراسات متعددة فى مختلف مجالات المعرفة .

وقد أتم عبد الحميد جوده السحار كتابة السيرة فى عشرين جزءا ، وقد حقق بذلك أملا من آمال حياته .. وفى تناوله لهذه السيرة حاول أن يزيل عنها ما علق بها من الأســـاطير والأوهام التى دسها الفكر اليهودى الذى طالما حاول أن يشوه من جلال الإســـلام ، كما أنه تناول هذه السيرة بأسلوب قصصى جذاب يجعل القارىء يعيش جو الجزيرة العربية بما فيها من عادات وتقاليد ، وبما فيها من حيـــاة اقتصادية ، كما يصور بريشة أديب ممتاز هذا المناخ الإرهابى الذى ساد العالم متمثلا فى إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الرومان .. كما رسم المناخ الاجتماعى فى الجزيرة العربية قبل مبعث الرسول وبعد الرسالة .. ومن هذه الصورة يمكن للقارىء أن يتخيل خريطة بالألوان

لهذا العالم الذى كان فى حاجة ماسة إلى رسالة جديدة تعيد للحياة جلالها وتعيد للإنسان كرامته ، رسالة تأتى بدستور يحكم علاقات البشر بعضهم ببعض ، وترسم الطريق إلى معــرفة مستنيرة بخالق الأرض والسماء . رسالة ترسم للإنسان طريق خطاه .. من هو فى هذا الكون ؟ ما سيرة حياته ؟ وما مصيره عندما يودع هذه الحياة ؟ إنها الرسالة التى تربط الأرض بالسماء .

وفى الأجزاء الخمسة الأولى من الســيرة ، وتزيد على الألف وستمائة صفحة ، يتحدث عن رسالة الإســلام التى بدأت بآدم ، فإبراهيم الخليل ، فجميع الأنبياء والرسل . فالإسلام نزل على آدم ، وكل الأنبياء كانت دعوتهم هى الإسلام .. والذى يحــدث هو أنه عندما تتباعد المسافة بين الناس والرسالة التى جاء بهــا النبى من الأنبياء ، يتناسى الناس أصول هذه الرسالة . ويعكفون على الأساطير التى تقربهم إلى الله ، فيعبــدون الأحجار وبعض ظواهر الطبيعة . فتكون الحاجة ملحة إلى نبى جديد ، يعيد للرسالة صورتها الصحيحة ، ويصحح مسارها .. وهكذا إلى أن يبدأ عبد الحميد جوده السحار فى سرد الرسالة المتكاملة على يد محمد عليه الصلاة والسلام .

وفى الأجزاء الخمسة الذى يتناول فيها الأنبيــاء الذين سبقوا محمدا عليه الصلاة والسلام ، يتخذ منهجا فى الدراسة يعتمد أولا على القرآن الكريم كمصدر أساسى لدراسته ، فإذا ما جاء فى التــوراة أو غيرها من الكتب ما يتعارض مع القرآن فإنه يرفضه ولا يأخذ به . كما أنه استعان فى عرضه لهذه الدراسة بالسرد القصصى لما فيه من ترغيب للنفس على الاطلاع ، مما يقضى على السأم الذى ينتــاب القارىء الذى يقرأ السرد المباشر ، دون أن يكون لهذا الأسلوب

القصصى تأثير على الحقيقة التاريخية . ويقول المؤلف عن هذا المنهج :

ـ حاولت جهدى وإن كنت أكتب قصة أو ما يشبه القصة أن أحافظ على الحقيقة التاريخية ، فما من حادثة دونتها إلا ولها سند .. وقد فحصت الروايات المختلفة وأخذت أقربها إلى المنطق وروح الدعوة ، وإن تعارضت مع ما ورد فى التوراة أو بعض الأحاديث أو مع المتواتر من المؤرخين .

وهو فى هذه الدراسة قد اهتدى إلى بعض النتائج الهامة . والأجزاء التى تتناول الحياة قبل رسالة محمد عليه الصلاة والسلام هى :

- □ إبراهيم أبو الأنبياء .
- □ هاجر المصرية أم العرب .
- □ بنو إسماعيل .
- □ العدنانيون .
- □ قريش .

وبعد أن يقص علينا المؤلف حياة إبراهيم عليه السلام وزوجته هاجر ، وحياة ابنه إسماعيل فى الجزيرة العربية ، يفند مزاعم البعض الذى كان يشكك فى وجود إسماعيل ؛ وأعتقد أن الدكتور طه حسين كان واحدا من الذين يرددون مثل هذا القول . إن السحار يقول فى تذييله الذى كتبه فى الجزء الثالث :

ـ « وقد ذهب بعض الكتاب الإسلاميين فى عصرنا هذا إلى أن إسماعيل أسطورة من الأساطير وأنه لم يمش فى الأرض يوما ، ذلك لأن إسماعيل لم يرد اسمه فى نقش من النقوش التاريخية ، متبعين مذهب الشك قبل اليقين ؛ كأننا قد كشفت بطون الأرض كل أسرارها وكأننا لم يعد هناك تاريخ مطمور » .

ويستطرد السحار حديثه عما تكشفت عنه حضارة بابل وآشور فيقـول :

ــ « ولما كان بنو إسماعيل الذين انتشروا بين حدود بابل وحدود مصر على صلة وثيقة ببابل وآشور ، وقد لعبوا دورا هاما فى تاريخ المنطقة آنذاك ، وكانوا يمقتون الآشوريين ويمدون يد العون لكل أعداء آشور ، فقد سجل الآشوريون ما كان بينهم وبين هؤلاء العرب من بنى إسماعيل من مناوشات وحروب .

وأعلنت ألواح الطين التى كتبت بالخط المسمارى ، والتى وجدت فى أطلال بابل ونينوى وبلاد ما بين النهرين أن بنى إسماعيل كانوا حقيقة واقعة وأن أبناءه الاثنى عشر صاروا قبائل قوية تناوىء بابل وآشور ومصر والإغريق والرومان . وأثبتت الحفريات والنقوش أن إسماعيل عليه السلام كان يمشى فى الأسواق وكان صـــادق الوعد رسولا نبيا » .

ونرى السحار فى دراسته هذه يلجأ إلى المنطق ، وإلى المقارنة ليصل إلى نتائج هامة وإيجابية . فهو مثلا يرى أن إدريس عليه السلام ــ وقد كان مصريا ــ هو الأساس الذى استقى منه ، أو الذى عرف منه المصريون القدماء « التوحيد » كما بدا واضحا على يد إخناتون ، ولكى يثبت ذلك نراه يقول :

ــ « عرف المصريون الله قبل أن يعرفوا آمون وأزوريس وبتاح وآتون . وقد ربطت بين إدريس وعقيـــدة أزوريس لأنى رأيت أن إدريس كان فى منف وأن أزوريس كان فى منف وهو بعد فى الأرض قبل أن ترفعه الأساطير إلى السماء . ولأن كتب التـــاريخ تقول إن إدريس هو أول من علم الناس الزراعة وأزوريس أول من علم الناس

الزراعة ، وإدريس هو أول من خط بالقلم وأن أزوريس هو الذى علم المصريين الكتابة ، وأن الله رفع إدريس مكانا عليا وأن الأسطورة رفعت أزوريس إلى السماء ! » .

والسحار يرى أن أسطورة أزوريس سواء أنسجت حول إدريس أم نسجت حول حقيقة أخرى ، فمما لا شك فيه أن المصريين آمنوا بالبعث بعد الموت ، والحساب والثواب والعقاب بعد دعوة إدريس . وأن العبرانيين الذين كانوا فى مصر قبل أن يفسد دين القوم ثم هاجروا منها بعد أن فسد الدين إلى جنوب العراق يؤيد هذه الحقيقة .. حقيقة معرفة الله والبعث والحساب قبل عصر الأسرات .

وواضح أن السحار وهو يكتب هذه الدراسة ذات القيمة عن الحياة الدينية قبل الرسالة ، يوضح أن أساس الدين قد جاء مباشرة من السماء .. إنه لا ينساق وراء بعض الدراسات المغرضة التى تتدثر بثياب العلم فتقول إن الإنسانية مرت بمراحل مختلفة إلى أن عرفت التوحيد .. فالإنسان البدائى قد هالته الطبيعة الموحشة بوحوشها الكاسرة ، بمظاهر ثورتها العابثة المتمثلة فى الزلازل والبراكين ، بمحيطاتها وبحارها الهائلة .. وأمام هذا الخوف الرهيب الذى يحسه فى كل مظاهر الحياة من حوله ، العواصف الهوج .. الأمطار الغزيرة .. السيول .. حاول أن يجد لنفسه ملاذا يحميه من كل ما حوله من هذه الصور التى لا يفهم مصدرها ولا الهدف منها ، فحاول أن يسترضيها فعبدها . ومن هنا بدأ السحر والتنجيم ومحاولة معرفة أسرار المستقبل ، ومن هنا تعددت العبادات وتطورت ــ عبادة مظاهر الطبيعة ، إلى عبادة الشمس أو القمر أو النار ، إلى عبادة الأصنام إلخ . وهذه الصورة التى تصورها البعض تختلف تماما عن

التصور الدينى للحياة ، فليس هناك فى عرف الدين إنسان بدائى عاش فى ظل العصر الحجرى أو العصر البرونزى ، ثم تطور عندما عرف القراءة والكتابة ، واخترع العجلة ، وعرف كيف يستخدم النار ، وبالتالى تحركت الحضارة الإنسانية إلى مجالات أوسع وأعمق . ومع الأيام تطورت الحضارة ، ثم عرفت التوحيد وظهرت عصور النبوات ، إلى هذا التصور البعيد عن روح الأديان . فالأديان ترى أن بدء الخليقة كان آدم عليه السلام .. وعلم الله آدم الأسماء كلها . أى أن البشرية بدأت بمرحلة النضج مباشرة دون أن تمر بهذه المراحل الوهمية التى تخيلها البعض . وبعد آدم ، وبين فترة وأخرى ظهر الأنبياء مبشرين بدين الله . وعندما تبعد المسافة بين نبى ونبى وينسى الناس رحيق الدين ويغرقون أنفسهم فى الخرافة ، تظهر رسالة جديدة تنقى دين الله من الشوائب التى لحقت به . وهذا هو المنهج الذى نهجه عبد الحميد السحار فى دراسته فهو يقول :

ـ « يقول المشتغلون بالعقائد والديانات بتطور الدين ، وأن الحضارة ظهرت على وجه الأرض منذ اليوم الذى ظهر فيه وجه الضمير . وأن الإنسان سار فى طريق الرقى ودرج فى مدارج السمو منذ ذلك اليوم فعرف الآلهة والبعث بعد الموت والثواب والعقاب . وأكد المتحمسون لمبدأ التطور أن الديانات السماوية استمدت أصولها من ديانات قدماء المصريين والبابليين والآشوريين .

ورجعت إلى القرآن الكريم أبحث عن نشأة الدين فاهتديت إلى أن الإنسان منذ خلقه الله وهو على علم : « وعلم آدم الأسماء كلها » وأن هذا العلم انتقل من آدم إلى بنيه ، وأن الصلة بين آدم وبين الله لم تنقطع بهبوط آدم إلى الأرض : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب

عليه » ، فمما لا شك فيه أن آدم وبنيه عرفوا الله الواحد القهار حق المعرفة ، فلما طال عليهم الأمد قست قلوبهم وأشركوا بالله غيره وجعلوا له أندادا ونسجوا حول الحقيقة التى بلغتهم أساطير ، فمن المقرر أنه لا يمكن خلق شيء من لا شيء ومن هنا جاءت اللمحات الصادقة فى عقائد المؤمنين » .

ووفقـــا لهذا المنهج نرى السحار وهو يبحث عن جذور دعوة إخناتون إلى التوحيد . إن ما وصل إليه إخناتون ليس اجتهادا خاصا بقدر ما هو إيمان بما جاء به الأنبياء واطلع عليه إخناتون وآمن بهذه الديانة التى مصدرها السماء .. فهو يقول :

ـ « كان إخناتون شابا مستقيما وكان يرى فى تعدد الآلهة كفرا ، فإبراهيم دعا إلى التوحيد فى مصر أيام الهكسوس ، وجاء يوسف من بعده ليدعو إلى الله وحده ، ثم جاء موسى أيام تحوتمس الثالث يدعو إلى الله الواحد القهار وما موسى ببعيد ، فتغلغلت دعـــوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط وموسى فى إخناتون حتى النخاع » .

والذى يتابع هذه الدراسة الشائقة فى الأجزاء الخمسة الأولى يجد نفسه أمام خريطة واضحة المعالم . وفى هذه الخريطة يستطيع أن يرى بسهولة كيف تطور الفكر البشرى وكيف سادت عبادة الأوثان فى الجزيرة العـــربية ، ثم يرى بوضوح العادات والتقاليد والقيم السائدة فى العالم المعروف فى هذه الفترات التاريخية التى تعرض لها سواء فى مصر أو بابل أو آشور أو فى الجزيرة العربية ، أو فى بلاد الرومان أو الفرس . فنحن ننظر إلى تضاريس هذه الخريطة ونجـــد إجابة واضحة عن طريقة تسلل عبادة الأوثان إلى الجزيرة العـــربية

بطريقة سهلة ومبسطة ومقنعة . فنراه يقول :

ـ « وما عاد بنو إسماعيل من مصر إلى أرض النبط حتى كانوا يحملون تمثال امرأة جميلة ، وسرعان ما عادت إلى آذهانهم أساطير العرب قبل أن يدعو إبراهيم إلى عبادة الله ، عبادة الإيل . كان العرب قبل أن يعرفوا التوحيد يعبدون الشمس والقمر والنجوم فى بابل وفى سيناء وفى اليمن . وكانوا يؤمنون أن القمر هو رب الأرباب وأن الشمس هى زوجه وأم الآلهة ، وأن عشتار أو عشتر هى ابنتهما أو ابنهما حسب اعتقاد كل قبيلة ، فلما جلب النبط تمثال امرأة عادوا إلى أساطير الأولين . إنهم يعبدون « الإيل » رب الأرباب فليكن تمثال المرأة الذى جلبوه زوجة الإيل كما كانت الشمس زوجا للقمر ، وأطلقوا عليها الإيلات أى زوجة الإيل وصارت رمزا للشمس .. وتطور الاسم من الإيلات إلى الليلات ثم اللات ... وجلب النبط من مصر فيما جلبوا تمثال إيزيس ووضعوه فى معابدهم وسجدوا له ، وأطلقوا عليه العزيزة وجعلوها رمزا لكوكب الصباح . ولما كان العرب يميلون إلى تفخيم آلهتهم فقد أطلقوا عليها العزى وجعلوها بنتا من بنات الله ، و .. عرف بنو إسماعيل من البلاد التى جابوها التى تعكف، على عبادة الأصنام أن للسوت إلها ، فجعلوا تلك المرأة للحظ والمنايا ، وأطلق عليها النبط اسم « منوتن » التى صارت فيما بعد مناة !! » .

ونراه فى الجزء الرابع « العدنانيون » يوضح معالم ما يسود العالم من عبادات بصورة أكثر وضوحا .. كيف انتشرت آراء زرادشت فى الفرس ، وكيف امتدت الإمبراطورية الفارسية بفضل هذه الدفعة الروحية التى بعثها زرادشت ، إلى تكوين الإمبراطورية الفارسية على يد قورش وقمبيز ، إلى أن انتصر الإسكندر الأكبر على دارا الذى

حكم الفرس بعـــد ذلك ، والإسكندر بدوره كان قد تأثر بآراء أرسطو ، وأرسطو كان قد تتلمذ على يد أفلاطون ، وكان أفلاطون يؤمن بإله واحد وهو المحرك لكل الوجود ، واستطاع الإسكندر بفضل إيمانه بهذه الفلسفة أن يغزو العالم ويكون إمبراطورية ضخمة ولكن الإسكندر مات وهو فى الثالثة والثلاثين من عمره ، ولو كانت هذه الإمبراطورية الضخمة قامت على أساس روحى ــ كما يقول السحار ــ لتغير وجه التاريخ ، فإن فى قواده من كان يرتاب فى قيمة الفلسفة ، ومنهم من كان يجهل فلسفة أفلاطون .. ثم يعرض لنا الكاتب بعد ذلك قيام الإمبراطورية الرومانيـــة فى إيطاليا ، ومن خلال ذلك يسرد لنا الدور الذى لعبه اليهود فى الدولة الفارسية عندما استطاعت الغانية اليهودية إســـتر أن تلعب بلب أخشويرش إمبراطور فارس وتسيطر عليه ، وبالتالى تمكن لليهود من دخول فلسطين . وكيف دوّن اليهود سيرتها فى التوراة على أساس أنها قديسة ، ثم يسرد قصة اليهود بعد الذل الذى لاقوه على يد بختنصر ويصور حياتهم بقوله :

ــ « دنس اليهود فى أرض السبى الحياة الأخرى ، واعتنقوا ما كان يعتنقه البابليون من أن الإنسان يذهب بعد الموت إلى الأرض التى لا رجعة منها ، إلى أرض الظلمات ، وأطلقوا عليها شوول ، ثم قالوا إن الإنسان يثاب على أفعاله ويعاقب عليها فى الحياة الدنيا . وراحت التوراة الجديدة تروى تاريخ اليهود فرفعت إستر إلى مرتبة القداسة . ولما كان اليهود فى ذلك الوقت أذلة ملطخين فى العار ، فقد ألصقوا بالرســـل والأنبياء كل نقيصة ، وجعلوهم يعاقرون الخمر ويرتكبون الفواحش ويضطجعون مع بناتهم ولا يتورعون عن الكذب والزنا وإتيان الفســـوق ، كما أن اليهود فى فلسطين فى شوق إلى

التوراة . فلما جاءهم العزير بمـــا كتب فى أرض السبى ، ونشبت مناقشات حامية فى أورشليم ويهود السامرة قال السامريون إن كانت التوراة قد نزلت على موسى فعلى من نزلت الأحداث التى تروى تاريخ اليهود بعد موسى ؟ ومن الذى روى الآيات الواردة فى التوراة الجديدة بعد موسى ؟! ومن الذى روى الآيات الواردة فى التوراة الجديدة بعد الإصحاحات الخمسة الأولى .. ومن الذى جعل إستر قديسة ؟! » .

ثم يحدثنا عن تلك المعـــركة التى قامت بين بختنصر وعدنان ، وكيف اتجه ولداه إلى مكة ، كما أمرهم أبوهم بذلك ليعيدوا للدين صفاءه وإبعاده عن الشرك ، وكيف تسلل الشرك بعد ذلك إلى مكة عن طريق عمر بن لحى الذى أعجبته فى أثناء رحلاته إلى الشام بعض أصنام النبط فأخذها معه ووضـــعها فى الكعبة ليضع بذور الشرك وعبادة الأصنام ، ثم يأخذنا السحار فى رحلة ممتعة حول العـــالم المعروف فى ذلك الوقت : الصراع فى فارس ، وظهور « مزدك » صاحب الفلسفة المزدكية التى تنادى بشيوعية النساء وبتساوى الناس فى الأرزاق وكيف انتهت هذه الثورة فى ظل الصراع مع الأباطرة ، ويحدثنا عن الصراع الدائر فى الإمبراطورية الرومانية حول طبيعة المسيح وكيف دخلت الوثنية المسيحية كما دخلت اليهودية . فاليهود قالوا العزير ابن الله متأثرين بالديانة البابلية أيام النفى ، كما قال المسيحيون إن المسيح ابن الله متأثرين بمـــا قاله إثناسيوس رئيس شمامسة الإسكندرية .. كما كان لأسطورة أوزوريس وإيزيس وحورس تأثيرها على الفكر الدينى المسيحى ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ،

ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » .

ثم يحدثنا السحار فى الجزء الخامس « قريش » . كيف استطاع تبان أسعد ملك اليمن أن يغزو الهند والصين . وعندما يعلم بنبأ قتل ابنه فى يثرب يعود مقررا أن يهدم يثرب على رءوس أصحابها ، غير أن رهبان اليهود يقنعونه بأن يثرب ستكون ملجأ لنبى عربى سوف يكون موطنه البيت الحرام . وهنا تهدأ ثورته ويبنى منزلا فاخرا ليكون هدية من تبان إلى النبى المنتظر لينزل فيه عندما يهاجر إلى يثرب .

كما نرى فى هذا الجزء ، وهو الذى يختم به دراسته ذات القيمة عن تلك الفترة التى سبقت آخر رســـالات السماء ، كيف دخلت اليهودية إلى الجزيرة العربية على يد بلقيس التى آمنت بها على يد سليمان .. كما نرى فى هذه الدراسة محاولة أبرهة هدم الكعبة انتقاما للنصارى الذين قتلهم ذو نواس الذى حفر أخدودا كبيرا وأشعله بالنار وألقى فيه بالمسيحيين ، وكان قد تأثر بالتوراة التى وضعت فى أثناء النفى اليهودى فى بابل . إنه فى هذا الكتاب الأخير يضع أمام القارىء خريطة واضحة المعالم لعالم ما قبل الرسالة ، فهو عالم امتلأ بالمظالم حيث طغت الإمبراطورية الرومانية والفارسية وتحكمتا فى العالم المعروف ، بجانب فساد القيم والأخلاق وطغيـــان العادات السخيفة التى لا معنى لها فى الجزيرة العربية وغيرها من بلدان العالم . وأصبحت الدنيا فى حاجة إلى منقذ .. يعيد للقيم النبيلة نضارتها .

ويعيد للأخلاق الكريمة جلالها ، ويرسم للإنســـانية مثلا عظيمة فى حياتها . كما يوضح لها علاقة الأرض بالسماء ، وأن الإنسان الذى يحب أن يعيش حياته هو ذلك الإنسان الذى يعرف ربه حق المعرفة . يعرف الله خالق الأرض والسماوات وما بينهما وما تحت الثرى . إنسان يؤمن بالتوحيد المصفى ، التوحيد الذى لا يدنسه شرك أو فلسفات دنيوية فارغة لا ترسم هدفا ولا تحقق طريقا ولا توضح للإنسان مواقع خطاه .

كانت الإنسانية غارقة فى أوحال من الخطيئة . وأوحال من الفلسفات الفارغة ، وأوحال من سيطرة الشهوة على كل ما هو معنوى ونبيل ، أى أن الإنسانية كانت فى مرحلة العربدة الفكرية — إن صح هذا التشبيه — وفى حاجة ماسة إلى رسول عظيم يأتى برسالة عظيمة .

وجاءت الرسالة العظيمة وجاء الرسول العظيم ، واختتمت السماء رسالتها إلى الأرض بهذه الرسالة التى ستظل إلى أبد الآبدين تهدى الإنسانية الحائرة إلى نور الهداية ما دام الناس متمسكين بها . لقد كانت الرسالة هى الإسلام ، وكان الرسول هو محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم .

٤

مع الرســـول العظيم

علينا بعد ذلك أن نعيش مع مؤلف السيرة تلك الرحلة العظيمة فى كتابته لسيرة النبى عليه الصلاة والسلام من يوم مولده إلى يوم مماته . إنها أعظم الملاحم التى شهدتها البشرية فى تاريخها الطويل العريض ، فنحن أمام شخصية مبهرة غاية الإبهـــار ، عظيمة غاية العظمة ، مدهشة غاية الدهشة . شخصية لم يسبق لها مثيل فى التاريخ الإنسانى كله ! شخصية أذهلت حتى الذين لم يؤمنوا به ! إنهم وإن وقفوا ضد رسالته ولم يؤمنوا بها إلا أنهم وقد أعماهم التعصب لم ينكروا الإعجاب بها . قد وجد على الدنيا يتيما يقف وحده يواجه العالم كله بما فيه من ظلام وإظلام ، يجابه الدنيا كلها بدعوة جديدة يخوض فى سبيلها أعتى المعارك وأشدها هولا . يخرج من حرب ليدخل فى حرب جديدة ، ويعانى من صنوف الاضطهاد ما يعانى : اضطهاد نفسى ، واضطهاد مادى ، وهجرة فى سبيل الدعوة . وينتصر فى النهاية ويكوّن رجالا من حوله كان كل واحد منهم أمة وحده . إن الذى ينظر إلى هذه المدرسة العظيمة التى كوّنها محمد عليه الصلاة والسلام ويقف قليلا إلى بعض تلاميذ هذه المدرسة ، ليجد نفسه مبهورا أشد الانبهار ، يرى شخصيات أناس عاشوا حياة عادية فى جاهليتهم كان يمكن أن يخوضوا تجربة الحياة ثم يطويهم الموت ولا يحس بهم أحد ، ولا تعرف عنهم الدنيا شيئا ، ولا يعى الزمان عنهم أى شىء ، ولكنهم بفضل هذه الرسالة الخالدة أجبروا التاريخ على أن ينحنى

لهم إجلالا ، بل هم الذين صنعوا التاريخ وأقاموا حضارة شامخة ومدنية قلبت حياة الدنيا رأسا على عقب . ومن منا لا ينبهر وهو يرى تلاميذ هذه المدرسة وقد رسموا للتاريخ طريقا جديدا . وعبدوا للإنسانية طرقا فى المعرفة والعلم ، ونشروا راية الحضارة والمدنية فى ربوع الدنيا ؟ من منا لا ينبهر عندما يُذكر أبو بكر الصديق ذلك الرجل النحيل الطيب القلب ؟ ما إن تئول إليه آمور المسلمين حتى يخوض معارك الهول ضد أعداء الدين والمرتدين ، ويردد الكون كلمته الخالدة لعمر بن الخطاب الذى كان يخشى على الإسلام بعد وفاة الرسول من نكسة تعصف به عندما أصر أبو بكر على محاربة ما نعى الزكاة ، فيطلق كلمته المدوية :

ـ أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام يا عمر ؟ والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لحاربتهم عليه .

أبو بكر الرجل الطيب الذى يكاد قلبه يذوب رقة ورحمة ، يسيِّر الجيوش التى كان ينوى رسول الله تسييرها لمحاربة أعتى الإمبراطوريات التى شهدتها الدنيا كلها ، فيكسل هذا العمل الجرىء ، ويأمر بأن تسير جيوش الإسلام لتحارب الفرس والروم ، وترتفع راية الإسلام خفاقة عالية بفضل شجاعته وإيمانه ؟

ومن منا لا ينبهر أمام شخصية الإمام العادل الزاهد عمر بن الخطاب الذى تحققت فى عهده أعظم الانتصارات وأعظم الفتوحات ، ثم كان فى شخصيته هو نفسه إعجازا أى إعجاز ؟

ومن منا لم يقرأ عن عثمان بن عفان الذى يتبرع بأمواله فى شتى المناسبات فى سبيل الله ؟ وعلىّ الذى ملأ الأرض علمـــا وحكمة وشجاعة ؟ وعمر بن عبد العزيز وخالد بن الوليد وســـعد بن أبى

وقاص ؟ ومئات بل ألوف من أفذاذ الرجال الذين حفروا على صفحات التاريخ صفحات ناصعة البياض ، فما بالك بشخصية الرسول نفسه ؟!

إن هذه الرحلة الشائقة التى يكتبها لنا السحار مع الرسول لا يمكن أن نقف عند كل جزء من أجزائها ، وإلا كان معنى ذلك أننا سنكتب مجلدا ضخما . ولكننا سنقطع الرحلة مع الكاتب فى نظرة شاملة ، فهو يسرد هذه القصة الرائعة بأسلوب قصصى جذاب ليس فيه جفاف الدراسة الأكاديمية بما فيها من تكرار يبعث على الملل ، وليس فيه طريقة السرد المباشر بما فيها من جفاف . ولا يترك نفسه يحلق فى جو الأساطير ، إنما يجعل من خياله القصصى وسيلة لإكمال صورة من الصور يريد أن يرسمها . عند هذا الحد فقط يترك العنان للخيال ، ولكنه لا يترك الخيال يجسم حقيقة من حقائق التاريخ . ولكنه فى طريقة سرده لأحداث هذه السيرة يجعل القارىء يتوقف عقب قراءته لأى فصل من فصولها وكأنه يتخيل العصر الذى يعيش فيه ، وكذلك يتخيل هذه الشخصية الفذة . شخصية محمد عليه الصلاة والسلام . يتخيله فى آماله وآلامه وفى أفراحه وأحزانه بصورة تنفذ إلى أعماق القلوب .

ولنقف عند طريقته فى السرد . فهو بعد أن يقص علينا ميلاد الرسول الكريم يستعرض لنا طفولته عندما عاد إلى مكة بعد عودته من عند حليمة السعدية . إنه يرسم صورة متكاملة لا للأحداث التى شاهدها محمد فى طفولته ، ولكنه يحاول أن يقترب من أعماق محمد نفسه ، يحاول أن يقترب من تفكيره ، ويسهل له الأسلوب القصصى هذه المهمة ككاتب ، أو يسهل لنا تخيل معالم الصورة كقراء . إنه يقول مثلا فى بداية الجزء السابع « اليتيم » :

« سجى الليل ، وراحت الشهب صغيرها وكبيرها تتزاحم فى رقعة السماء وتتنافس فى التألق واللمعان ، فبدت كبساط زمرد نثرت عليه دنانير تخالطها دراهم . وأحدقت نجوم الثريا بالهلال لكأنما تريد أن تسبقه ، وبات الهلال فى معصم الظلام سوارا وعلى مفرق الدجى إكليلا . ومحمد بن عبد الله جالس تحت الشجرة فى أعالى مكة يرنو إلى السماء وفى ذهنه انبهار ، وفى نفسه عجب وإعجاب ، وفى وجدانه إشراق . يستشعر كأنه ذاب فى الوجود . أو لكأنما الوجـود كله قد انسكب فى فؤاده .

كان يسير مع أمه حليمة وأبيه الحارث فى طريقهم إلى مكة لتعيده حليمة إلى أمه آمنة بنت وهب بعد أن شب ومضى من عمره أربع سنوات . وقد سقط عليهم الليل وهم فى أعالى مكة . وتدفق سيل الحجيج إلى بيت الله العتيق ، وجرف الركب الصغير فإذا بمحمد يجد نفسه فى بحر من الناس . فراح يتلفت فلم يجد حليمة ولا الحارث وضل الطريق . فلم يفزع ولم ينخلع قلبه رعبا . بل راح يشق طريقه فى الجموع . حتى إذا ما بلغ شجرة جلس تحتها هادىء النفس ينتظر أوبة حليمة . أو مجىء من يحمله إلى أهله عند الحرم .

وراح محمد يقلب وجهه فى الكون وهو مسرور . لكأنما كانت روحه الفتية القوية تمتص حكمة الوجود . وأرهف سمعه ، وأصاخ للأصوات المنبعثة من وقع أقـدام الناس وارتطام حوافر الدواب بالأرض وحنين الإبل ووسوسة النسيم فى أوراق الشجر ، فانشرح صدره وتهلل بالفرح قلبه . لكأنما كان يصغى إلى ترانيم وتسبيحات .

ولم يعرف الوجود الغمض ولم تغمض عينـا الصبى ولم يقف ذهنه ولم ينم قلبه . بل راح يتذكر أيامه فى بنى سعد . تلك الأيام

السعيدة التى أمضاها فى دار حليمة مع إخوته عبد الله وأنيسة والشيماء ، وقفزت إلى ذهنه لعبته المفضلة ، لعبة العظمة البيضاء التى كان يلعبها مع أنيسة وعبد الله . وقد كانوا يأتون بعظمة ناصعة البياض ، وفى الليالى المظلمة يلقون بها بعيدا إلى أقصى ما تستطيع يد أحدهم ، فمن يبصر بها على بعدها يصبح رئيس الجماعة . ورفت على شفتيه بسمة هادئة فقد رأى نفسه وهو زعيم أنيسة وعبد الله .

وتذكر ذلك اليوم الذى كانت تحمله فيه الشيماء على ظهرها تلاعبه وتداعبه . وقد أسرفت فى ملاعبته فمال برأسه وعضها عضة قوية فى ظهرها ، فندت منها صرخة أفزعته . فغامت صفحة وجهه الجميل بالأسى وهو تحت الشجرة . فما كان يحسب فى ذلك اليوم أن عضته تلك تسبب لأخته مثل ذلك الألم . وقد ظل كلما رأى أثر عضته فى ظهرها يتألم وتترقرق الدموع فى عينيه » .

بهذا الأسلوب القصصى استطاع السحار أن يأخذنا فى رحلته الممتعة تلك مع الرسول عندما كان عند حليمة السعدية ، وعندما تاه منها فى رحلة العودة ، وانتظار جده عبد المطلب إياه وبعثه من يبحث عنه ، ولهفة أمه عليه . ثم نرى السحار يركز دائما على كثرة تأمل الرسول فى معبد الطبيعة . إنه دائم التأمل فى رحلاته وفى تجواله منذ سنه تلك الصغيرة ، كأنه يستلهم من الطبيعة ما وراء الطبيعة .. روح الطبيعة خالق الكون ، إنه دائم التأمل طويل التفكير كلما خلا إلى نفسه ، وكلما عاش فى أحضان الصحراء وحيدا . نفس الصورة تراها للكاتب وهو يصور لنا رحلة الطفل محمد مع أمه لزيارة أخواله فى يثرب وزيارته مع أمه لقبر أبيه . إنه يركب الجمل مع أمه فى صحبة بركة مع القافلة المسافرة إلى يثرب . ها هو محمد الطفل قد انطلق من

جديد فى أحضان الطبيعة . إنها فرصة لعودته إلى التأمل :

« وسرت القافلة فى الكون العريض ومحمد يرعى نجوم السماء فى الليل ويبتهج قلبه للشروق وتتهلل نفسه بالفرح وهو يرقب الغروب . إنه يذوب فى الوجود ويتناسق مع كل ما حوله ويستشعر بتعاطف عجيب بينه وبين كل ما يسد إليه عينيه من رمال وصخور وآبار وعيون وسادة وعبيد .

واتجهت القافلة ناحية ساحل البحر ، ودبّ فى الرجال والنساء نشاط ، وارتفع صوت الحادى يحث الإبل على الإسراع ، والتفت محمد بعينيه الجميلتين إلى أمه وكان فيهما تساؤل كأنما يقول لها : فيم هذا النشاط ؟ وفطنت الأم إلى ما يريد فقالت :

ــ مناة إلهة الأوس والخزرج » .

ونسير مع أحداث هذه الرحلة فنرى أن محمدا لم ينشرح قلبه لما يرى فى الطريق وما يراه فى المدينة من حصـــون اليهود ، إنه دائم التفكير فى كل ما حوله . وفى طريق العودة تموت أمه الحبيبة وتقبر فى الأبواء . إنه يشاهد نهاية أمه ، ويبكى كطفل ما شاء له البكاء ولكنه يعاود التفكير والتأمل :

« وكان محمد يفكر فى أمره ، إنه خرج من مكة مع أمه وها هو ذا يعود وحده بلا ولى ولا ناصر ، كانت لرحلته بداية وها هى ذى تشرف على النهاية ، وكانت لأمه بداية وقد انتهت أيام حياتها . إن الحياة رحلة لا بد أن تنتهى إلى غايتهـــا يوما ، وإن كل شىء له أول لا بد أن يكون له آخر ، وراح محمد يفكر فى الحياة وفى الموت وفى الوجود بعد أن واجه قسوة الفناء لأول مرة تفكيرا يتلاءم مع سنه ، أقرب إلى الإحساس منه إلى استجلاء كنه الحياة والموت وما بعد

الموت . وقد كان ذا عقل راجح وبصر نافذ وإحساس مرهف وتناسق مع الكون سوف يقوده فى أيام نضجه إلى جوهر الحقيقة » .

وعلى طول قراءة الخمسة عشر جزءا التى تناول فيها حياة الرسول، سنقف دائما عند هذا التأمل الذى تأصل فى حياة محمد . ها نحن أولاء نمضى مع القصة ، فقد عرفناه دائم التأمل عنـدما كان طفلا صغيرا عائدا إلى قريش بعد أن أرضعته حليمة السعدية ، وعرفناه متأملا عقب وفاة أمه ، ومع الأيام يزداد تفكيره .. لقد كان الموت هو اللغز الذى يحاول أن يجد له حلا ، وتفكيره فى الموت هو الذى أنضج فكره :

« الموت !

« إنه وقف عاجزا أمامه يوم أن صرع أمه واختطفهـا من بين أحضانه لتغيب فى التراب ، الموت ! إنه استل جده الحبيب من بين بنى هاشم الأقوياء دون أن يحرك أحدهم ساكنا ، ترى أيموت الناس كما يموت البعير ثم لا شىء ؟ أتطول وقفته على أعتاب ذلك السر ؟

والإنسان ؟ من أين جاء ؟ هل انبثق من العدم ؟ وإلى أين يذهب ؟ أيذهب إلى العدم ؟ أسئلة دارت فى ذهنه لم يجد لها فى ذلك الوقت جوابا ، ولكنه كان يحس أن هناك صلة وثيقة بينه وبين العالم الذى يعيش فيه ، بل بين روحه التى تخفق بين جنبيه وروح الوجود التى تسرى فى الكون . وكان ذلك الإحساس يملأ جوانبه بالنور ، ولكنه لم يكن يقضى على الأسئلة الذكية التى تثور فى وجدانه .

كان يستريح لصحبة نفسه ويبتهج للخواطر التى تثور فى صميم ذاته ، ويركز ذهنه ليلقى أضواء عليها ويطيل تأمله الباطنى ويراقب

ضميره فتزداد حياته الروحية عمقا وثراء ، فيدنو من السماء ، وتدنو منه السماء .

كان عملاقا فى جسم غلام ، إنه أكبر بكثير مما يبديه جسده. أو ما يراه منه الآخرون ، فهو على الرغم من حداثة سنه لم يسجد لصنم ولم يذبح لوثن ولم يصغ إلى عراف ، ولم يحلف أبدا باللات والعزى والحلف بهما يتردد فى الحرم وفى الدور وفى الأسواق ، ويتجاوب فى شعاب مكة وجبالها وروابيها بل وفى كل فج عميق من أرض الحجاز » .

وعرف الصبى محمد الرحلات .. ذهب إلى اليمن وذهب إلى الشام . وكانت الرحلات حبيبة إلى نفسه لأنه فى هذه الرحلات يترك لخياله العنان فى التفكير وهو يسير فى معبد الكون :

« إنه فى رحلة دائمة قد فتح عينيه على نور الوجود ، وإنه ولمّا يتجاوز العاشرة قد عاش فى أرض هوازن وضرب فى الشمال إلى يثرب ، وهو الآن فى طريقه إلى اليمن مع قافلة قريش فى رحلة الشتاء ، إن نفسه متعطشة إلى أن تهيم فى العالم لتروى ظمأها إلى المعرفة ، لتزيد كنوزها عواطفها غنى ، إنه فى سعى مستمر ليتجاوز حاضره بل ليتجاوز ذلك العالم المحدود ليسمو إلى ما فوق الواقع ، إلى ما وراء الطبيعة ، إلى روح الروح .

إنه يعيش فى داخل نفسه يتأمل ويبحث ويفكر ويطيل التفكير وينفذ إلى صميم العالم الخارجى فيحقق بين ذاته وبين الكون ضربا من الألفة والتوافق ، بل ومن الحب العميق ، ويرنو دائما إلى السماء يستمد منها العون والتأييد فكان بأبعاده الثلاثة : داخل ذاته وخارج ذاته وفوق ذاته يحقق أهدافا سامية خيرة وتتهلل لها نفسه بالفرح ،

وكثيرا ما كان يحس أن البعد العلوى قد تلاشى ، وأن حكمة السماء تسرى فيه مسرى الدم تلقى أضواء على أسرار النفوس وأحاجى الوجود » .

ولكن ما الذى لفت النظر إلى محمد فى رحلة اليمن غير كثرة التأمل ؟

لقد ظهر بُعد آخر فى شخصية محمد اكتشفه القوم فيه . فبينما كانت القافلة تسير فى طريقها إلى اليمن ، وبلغت واديا ضيقا بين جبلين إذا بفحل من الإبل يمنع من يجتازه ، فوقف رجال القافلة لا يتقدمون ، وإذا بمحمد الفتى الحالم ينزل عن ظهر بعيره ويتقدم فى خطى ثابتة نحو ذلك الفحل ، وقد لاح الهلع فى وجه عمه الزبير وكتمت أنفاس الناس .

وتقدم محمد نحو الفحل الهائج فى حرص وأناة ، ونظر إلى الفحل فى حب وعطف وحنان ، ومد يده يمسح بها بطن الفحل الهائج ، فإذا به يهدأ . وتقدم محمد منه وركبه وسارت القافلة . لقد ظهرت فى هذه الفترة من السن الصغيرة ملامح محمد الفارس الشجاع .

وفى رحلة الصيف إلى الشام ذهب مع عمه أبى طالب وكان معه فى الرحلة ذلك الصبى الذى سيكون أول المصدقين به من الرجال « أبو بكر الصديق » . كان أبو بكر فى العاشرة وكان محمد قد بلغ الثانية عشرة . وعند دير فى الصحراء نزلت القافلة ، وخرج صاحب الدير يتفرس فى الوجوه ويصغى إلى أحاديث الناس ، ويشاهد محمدا ويعرف أنه لم يسجد لصنم ولم يحلف بأصنام قومه قط ، ويعتقد فى ذات نفسه أن هذا هو النبى المنتظر الذى بشر به الإنجيل ، ويدور حوار بين أبى طالب وصاحب الدير :

« ـ ما هذا الغلام منك ؟

ـ ابنى .

ـ ما هو بابنك وما ينبغى أن يكون له أب حى !

وصمت الرجل وهو يرنو إلى عينى محمد الحسراوين ، ثم قال فى صوت كأنما كان آتيا من وراء السماء :

ـ هذا نبى .

ولاحت الحيرة فى وجه أبى طالب ، وراح يقلب عينيه بين ابن أخيه وصاحب الدير ، ثم قال :

ـ وما النبى ؟

ـ الذى يأتى إليه الخبر من السماء فينبىء أهل الأرض .

ولم يستطع أبو طالب أن يتصور أن إنسانا يستطيع أن يسمو بإنسانيته ليأتى إليه الخبر من السماء فينبىء أهل الأرض ، فقال فى إنكار :

ـ الله أجل مما تقول ! » .

وتستأنف القافلة رحيلها حتى إذا ما بلغت قرية الكفو وبينها وبين بصرى ستة أميال ، نزل الركب عند شجرة أمام صومعة بحيرا الراهب . ويراه بحيرا وكأن غمامة من السماء تقيه لفح الشمس .. إنه يؤمن ببشارات السيد المسيح « بالفراقليط » . ودعا بحيرا القافلة لتناول الغداء معه ، ودار حوار بينه وبين محمد عرف منه أنه لم يسجد لصنم قط .

« وسار بحيرا إلى حيث كان أبو طالب وقال له :

ـ ما هذا الغلام منك ؟

ـ ابنى .

ـــ ما هو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا .

ـــ فإنه ابن أخى .

ـــ فما فعل أبوه ؟

ـــ مات وأمه حبلى به .

ـــ صدقت .

ـــ وما فعلت أمه ؟

ـــ توفيت قريبا .

ـــ صدقت . فارجع بابن أخيك إلى بلاده واحذر عليه اليهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبلغنــه شرا ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم . واعلم أنى أديت إليك النصيحة فأسرع به إلى بلاده » .

وتعجب أبو طالب وقال لبحيرا :

ـــ إذا كان الأمر كما وصفت فهو فى حصن من الله .

ولكن أبا طالب خشى على ابن أخيه فأمر بعض غلمانه أن يعودوا بمحمد إلى مكة ، فلما رأى عتيق « أبو بكر » أن صديقه سيعود إلى مكة طلب من أبيه أن يعود مع صديقه محمد . ووافق أبو قحافة . وكانت هذه أول صحبة بين الصديقين .

* * *

ونمضى مع السيرة حتى إذا وصلنا إلى الجزء التاســع « دعوة إبراهيم » نرى أن محمدا يبتعد بفكره عن عبادات أهل قريش . إنه يخرج إلى غار حراء يطيل التفكير والتأمل وكأن السماء تعده إلى مرحلة هامة من مراحل حياته . لقد مر بنفس التجربة التى مر بهـــا

الخليل إبراهيم ، فإذا كان الخليل إبراهيم قد اعتزل قومه فلم يخضع لعبادة الشمس أو القمر ، كذلك فعل محمد فلم يسجد لصنم . وفى إحدى الليالى الصافية وكان الكون كله صامتا خاشعا إذا بمحمد يسمع صوت جبريل :

ــ اقرأ .

ــ ما أنا بقارىء .

وسمع صوت الروح الأمين :

ــ « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم » .

ويذهب محمد مرتجفا إلى خديجة التى تزوجته بعد رحلته الناجحة بتجارتها إلى الشام ، كان عمره خمسة وعشرين عاما وكانت هى فى الأربعين من عمرها (أو فى الثامنة والعشرين حسب قول العباس) إنسانة رحيمة القلب محبة لزوجها . ويقص عليها قصته مع جبريل فترد عليه بقولها الذى يفيض رقة وحبا وحنانا :

ــ أبشر يا ابن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، فوالله لن يخزيك أبدا ، فوالله إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق !

وتسرع خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل تقص عليه قصة زوجها . وكان ورقة نصرانيا حافظا للإنجيل ، ويرد ورقة :

ــ قدوس .. قدوس ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة فإن ما رآه محمد فى غار حراء لهو الناموس الأكبر الذى نزل على موسى وعيسى من قبل ، وإن محمدا لهو نبى آخر الدهر

الذى ورد اسمه فى التوراة والإنجيل ، وأنه سيقوم بإبلاغ رسالة الله جل وعلا ، وسيلقى من قومه وعشـيرته الإيذاء والتكذيب ، وسيخرجونه ومن معه من ديارهم ، ثم يقاتل الذين كفروا .. ثم يؤتيه الله النصر والفتح ، فاذهبى إليه وقولى له فليثبت .

ويفتر الوحى عن النبى مدة ، فيقلق النبى ، وتسـأل خديجة زوجها :

ـــ لعل ربك قد قلاك ؟

وينزل جبريل بكلمات الله بردا وسلاما على قلب محمد :

« والضحى . والليـل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث».

ويجىء إلى محمد الأمر الإلهى :

« يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر » .

ولكن من ينذر ؟ سؤال راود ذهن محمـد وجاءه الجواب من السماء :

« وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . وقل إنى أنا النذير المبين » .

ووضحت الصورة أمام الرسـول . إن عليه أن يبدأ دعوته بالمقربين إليه . لقد آمن بالدعوة زوجته خديجة ، وابن عمه على بن أبى طالب ، ومولاه زيد بن حارثة ، وصديق عمره أبو بكر .. ودعا أبو بكر بعض أصدقائه إلى الإسلام فاستجاب لدعوته عثمان بن

عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وبلال بن رباح .. وبعد ذلك دخل فى الإسلام قلب بن الحرث ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وفاطمة بنت الخطاب ، وزوجها سعيد بن زيد ، وأسماء وعائشة ابنتا أبى بكر .
وكان لا بد من دار تجمعهم يتدارسون فيها كلام الله وسنة النبى الكريم ، فكانت دار الأرقم . وعزم محمد صلى الله عليه وسلم على أن يدعو قريشا فقام على الصفا وقال :

ـ يا معشر قريش هل عرفتم عنى كذبا وبهتانا ؟

وقالت الجماهير التى احتشدت لتسمع ماذا يريد أن يقول محمد : إنهم ما عرفوا عن محمد السوء .

فيقول لهم :

ـ إذن فاسمعونى ، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى ؟

ـ نعم .

ـ إذن فاسمعوا ، فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . يا بنى عبد المطلب ، يا بنى عبد مناف ، يا بنى زهرة ، يا بنى مخزوم ، يا بنى تيم ، يا بنى أسد .. لقد أمرنى الله ربى أن أنذركم فأنتم عشيرتى الأقربون ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تشهدوا معى ألا إله إلا الله ! .

هكذا بدأت أضواء الدعوة ، وهكذا دخل محمد فى صراعه ضد الكفر والبهتان . لقد خرست ألسنة البعض وارتسمت الدهشة على البعض الآخر وملأ الحقد بعض القلوب ، وتلفت إليه أبو لهب قائلا :

ـ تبا لك سائر اليوم ! ألهذا دعوتنا ؟

وهكذا بدأ جهاد محمد جهارا نهارا فى سبيل دعوته فلم يعد هناك حلول وسط .. إنه الإسلام لا بد أن يرفع رايته . وإن على محمد أن يبلغ الرسالة مهما أوذى ومهما لاقى فى سبيلها . ويهتز الوسط المكى كله ويدور نقاش وجدل ووعد ووعيد ومحمد لا تلين له قناة ولا يخاف فى الحق لومة لائم ، ويشتد الأذى بأتباعه .

* * *

ويأمر النبى أتباعه بالهجرة إلى الحبشة . وكانت الهجرة الأولى بها أحد عشر رجلا وأربع نسوة ، ثم الهجرة الثانية بها ثلاثة وثمانون فيهم عثمان بن عفان . وتبعث قريش رسلا إلى النجاشى ليرد المهاجرين ويأبى النجاشى إلا أن يستمع لهؤلاء المهاجرين أولا ، ويسألهم عن الدين الجديد الذى اتبعوه ، ويرد جعفر بن أبى طالب موضحا معالم هذه الرسالة :

« أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة . فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا ، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل

لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننـــا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جـــوارك ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك »

ويسأله النجاشى عن بعض ما ورد فى القرآن الكريم .

ثم يتلو عليه جعفر سورة مريم من أولها حتى هذه الآيات :

ــ « فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ».

ويقتنع النجاشى أن هذه الرسالة تنبع من نفس المنبع التى خرجت منه رسالة المسيح فيرفض أن يسلمهم إلى طغـــاة مكة . ويمكث المهاجرون فى الحبشة ثلاثة أشهر يسلم فى أثنائها عمر بن الخطاب . فيزداد الإسلام منعة ، ويموت أبو طالب وخديجة فى عام واحد يطلق عليه النبى عام الحزن ، ويشتد إيذاء قريش لمحمد .

وفى هذه الفترة العصيبة كان الإسراء والمعراج ، وكان تسرية للرسول محقت كل أحزان السنين التى انقضت :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » .

ويظل الرسول بمكة ثلاث عشرة سنة يجاهد جهادا لا ينقطع فى سبيل دعوة الإسلام ، حتى إذا ضاقت قريش به ، اتفقوا على أن يأخذوا من كل قبيلة شابا جلدا ، فيضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه

ويتفرق دمه فى القبائل ، ويوحى الله سبحانه وتعالى إليه بالهجرة :

« وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك . ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

ويخرج محمد ليلا مع صديقه أبى بكر فى طـريقه إلى المدينة ليؤاخى بين المهاجرين والأنصار ، ولتنطلق دعوة الإسلام فى طريق صامد بالجهاد فى سبيل نشر الدعوة ...

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم » .

* * *

وفى الجزء الثانى عشر « غزوة بدر » نرى أن دعوة الإسلام تأخذ مسارا حاسما ، فقد فرض الجهاد على المسلمين وكان لا بد من معركة فاصلة تظهر فيها قوة الإسلام على حقيقته ، وأن تياره الجارف لن يقف أمامه بعد ذلك حائل ، فقد خرجت مكة لتقابل المسلمين وتقضى عليهم بعد أن وصل إلى سمعهم أن الرسول تعرض لقافلة لهم . ورغم نجاة القافلة التى يقودها أبو سفيان إلا أن قريشا أصرت على أن تعطى محمدا درسا وتقضى على دعوته التى ابتدأت تغزو القلوب والعقول ، وينزل قوله تعالى :

« أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .. » .

وكانت موقعة بدر الكبرى ، وفى هذه المعـركة انتصرت القلة

المؤمنة على الكثرة الكافرة . لقد كانت هذه المعركة معجزة بكل المقاييس ، وإلا فكيف تنتصر هذه الأقلية المسلمة على ثلاثة أضعافها ؟. لقد كان الله مع المؤمنين ثبت أقدامهم :

« إذ يوحى ربك إلى الملائكة إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب » .

وبغزوة بدر بدأ الصراع شديدا وعنيفا بين مكة والمدينة ، أو بمعنى أدق بين المسلمين والمشركين .

وفى الجزء الثالث عشر « غزوة أحد » يصف المؤلف محاولة قريش لتثأر لهزيمتها فى بدر ، وكان ذلك فى مستهل العام الثالث الهجرى ، وكانت هذه المعركة درسا للمسلمين فقد هزموا من ناحية الشكل ، ولكنهم لُقنوا درسا هاما فى حياتهم وفى كفاحهم ضد الشرك . إن القرآن الكريم يعبر عن ذلك بقوله :

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين . وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ، ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » .

* * *

وتتكتل القبائل ويتآمر يهود المدينة فى محاولة للقضاء على الإسلام نهائيا وتكون « غزوة الخندق » (الجزء الرابع عشر) . ولكن الله ينصر المسلمين ويذل اليهود .

« ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا . وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا » .

ويعطى لنا عبد الحميد السحار فى كتابه عن غزوة الخندق صورة كاملة لهذه الملحمة الخالدة فى تاريخ الإسلام كله .. ولنقف عند صورة من الصور التى رسمها الإسلام لنبى الإسـلام والمسلمين فى هذه المعركة ، فالمسلمون اليوم يواجهون الأحزاب ويواجهون فى نفس الوقت مؤامرات اليهود ، ورغم الخندق الذى أقيم فقد غافل بعض المشركين المسلمين وعبروا الخندق ، ووقف عمرو بن عبد ود وكان من أشهر فرسان العرب أصيب فى بدر بجـراحات ثم ولى الأدبار ولم يشترك فى أحد ، وقد جاء مع الأحزاب ليمحو عار فراره وليعلن للملأ أنه لا يزال الفارس الذى لا يشق له غبار ، قال :

« ـــ من يبارز ؟

فقام على كرم الله وجهه وقال :

ـــ أنا له يا نبى الله .

فقال صلى الله عليه وسلم له فى إشفاق :

ـــ اجلس إنه عمرو بن عبد ود .

ثم كرر عمرو النداء قال :

ـــ من يبارز ؟

فلم يقم إليه أحد ، فجعل يوبخ المسلمين ويقول :

ــ أين جنتكم التى تزعمون أنه من قتل منكم دخلها ؟ أفلا يبرزن لى رجل ! وأنشد :

ولقــد بححت من النــدا	ء بجمعكم هل من مبارز ؟
إن الشــجاعة فى الفــتى	والجــود من خــير الغرائز

فقام على كرم الله وجهه فقال :

ــ أنا له يا رسول الله .

ــ إنه عمرو .

ثم نادى عمرو الثالثة :

ــ من يبارز ؟

فقام على كرم الله وجهه فقال :

ــ أنا له يا رسول الله .

ــ إنه عمرو .

ــ وإن كان عمرا !

فأذن له الرسول وأعطاه سيفه ذا الفقار وألبسه درعه ، وتقدم على وهو ينشد :

لا تعــجلن فقــد أتا	ك مجيب قولك غير عاجز
ذو نيــــة وبصــــيرة	والصــدق منجى كل فائز

وشخص صلى الله عليه وسلم ببصره إلى السماء وقال فى حرارة :

ــ إلهى أخذت عبيدة منى يوم بدر ، وحمزة يوم أحد ، وهذا على أخى وابن عمى فلا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين ، اللهم أعنه عليه .

ومشى على إلى عمرو بن عبد ود فقال له :

ـــ يا عمرو إنك كنت قد عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه .

ـــ أجل .

ـــ فأنا أدعوك إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم وإلى الإسلام .

ـــ لا حاجة لى بذلك .

ـــ فإنى أدعوك إلى البراز .

فضحك عمرو وقال :

ـــ إن هذه لخصلة ما كنت أظن أن أحدا من العرب يروعنى بها .

وتأهب على كرم الله وجهه للقتال ، فقال له عمرو :

ـــ لم يابن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك .

فقال له على :

ـــ ولكنى والله أحب أن أقتلك .

فأخذت عمرا الحمية وتقدم على فرسه ، فقال له على :

ـــ كيف أقاتلك وأنت على فرسك ؟ انزل معى .

كان عمرو بن عبد ود يكره أن يقتل عليا فأبو طالب كان صديقه وكان عمرو له نديما ، ولكن عليا كرم الله وجهه أثار حفيظته فغضب فاقتحم عن فرسه وسل سيفه كأنه شعلة نار فعقر فرسه وضرب وجهه ، وأقبل على على كرم الله وجهه . ولم يستطع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتابع المعركة ببصره فقد أشفق على نفسه من أن يرى مصرع ربيبه وحبيبه وأخيه وابن عمه وزوج الزهراء .

واستقبل على بن أبى طالب عمرو بن عبد ود بدرقته ، فضربه عمرو فيها فقدها وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه ، فانخلعت

قلوب المسلمين ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه أن يعين أبا الحسن والحسين على خصمه الذى تمرس على القتـــال على مر السنين . وغافل على كرم الله وجهه عمرا فضربه على حبل عاتقه ضربة فسقط يخبط فى دمه ، وكبر المسلمون ، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير عرف أن عليا الحبيب قتل عمرا ، فانقشعت مخاوفه وتهللت أساريره وتقدم ليستقبل فارس الإسلام وهو مسرور ، وأقبل على وهو متفرح بنصر الله فقال له عليه السلام :

ــ كيف وجدت نفسك معه يا على ؟

ــ وجدته لو كان أهل المدينـــة كلهم فى جانب وأنا فى جانب لقدرت عليهم ! » .

وكانت هذه بداية الانتصار الكبير فى هذه المعركة التى شتت فيها الله سبحانه وتعالى شمل الأحزاب .

* * *

ونمضى مع أحداث السيرة :

ها نحن أولاء فى العام السادس من الهجرة والوقت موسم الحج . قبائل العرب تتدفق إلى الأسواق قبل أن يتدفق الناس إلى البيت الحرام ، يدخل الرسول داره ويسلم جنبه للرقاد . إنه يرى نفسه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، وإنه دخل البيت وأخذ مفتاحه وطاف هو وأصحابه واعتمر .

وقرر الرســـول الذهاب إلى مكة ، إلا أنه عرف أن أهل مكة مانعوه من ذلك وأنهم استعدوا لمحاربته ، حتى إنه قال :

ــ يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى

وبين سائر العرب فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين . وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش ؟ والله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد عنى هذه السالفة .

وتصمم قريش على ألا تسمح للرسول بالطواف حول الكعبة . ويقول الرسول العظيم :

ـ والذى نفسى بيده لا تدعونى قريش إلى خطة يعظمون بها حرمات الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

ويكون « صلح الحديبية » (الجزء الخامس عشر) وتقترب السيرة الإسلامية من تحقيق أهدافها فيتم « فتح مكة » (الجزء السادس عشر) بعد أن خالفت قريش فى نصوص ما اتفقت عليه مع الرسول . فيزحف جيش إسلامى ضخم نحو مكة ويدخلها من جهاتها الأربع . ولم تجد قريش أمامها سوى الاستسلام ، ويدخل الرسول الكريم مكة ويهدم الأصـــنام . ويؤذن بلال من فوق الكعبة الله أكبر الله أكبر ..

وتنبعث موجات هذا الصوت الجميل إلى كل الأرجاء مؤذنة بأن ليل العبودية الطويل قد بدأ يتلاشى ، وأن أنوار الحرية والعـــدل والسلام التى أتى بها الإسلام آن الأوان لها لتنتشر شرقا وغربا وتعم العالمين .

وعندما تم للرسول فتح مكة خرج لغزو الروم فى مؤتة ، وألقى فى قلوب الروم الرعب فانسحبوا دون أن يلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتدفقت وفود القبائل إلى المدينة فى السنة التاسعة من هجرته عليه السلام ، ودانت له القبائل وأنزل الله على عبده :

« إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا » .

وسميت هذه السنة « بعام الوفود » .

كان الإسـلام قد وطد أركانه فى الجزيرة العربية وكان المد الإسلامى فى طريقه إلى الانتشار . بعد أن أرسل الرسول العظيم رسائله إلى ملوك الفـرس والروم وكبير القبط فى مصر . وكانت الجيوش تعد لنشر الإسلام على خريطة الدنيا ، وكان الرسول العظيم قد أتم على أكمل وجه تبليغ رسالة الله . ومرض الرسول وأمر أبا بكر أن يصلى بالناس وكان مفروضا أن يكون أبو بكر من جملة جيش أسامة ، هذا الجيش الذى كان معسكرا بالجرف خارج المدينة لينطلق إلى الشام ، فكان على أبى بكر أن يتخلف لما أمره صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس .

ودخل أسامة ليزور رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجـده مريضا فقال :

ـ بأبى أنت وأمى ! أتأذن لى أن أمكث أياما حتى يشفيك الله تعالى ؟

ـ اخرج وسر على بركة الله .

ـ يا رسول الله إن أنا خرجت وأنت على هذه الحال خرجت وفى قلبى قرحة منك .

ـ سر على النصر والعافية .

ـ يا رسول الله إنى أكره أن أسأل عنك الركبان .

ـ انفذ لما أمرتك به .

ثم أغمى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقام أسامة فتجهز للخروج ، فجعل رسول الله يقول :

ـ أنفذوا بعث أسامة ، لعن الله من تخلف عنه .

وعندما علم الرسول بجزع المسلمين من مرضه ، خرج متكئا على علىّ والفضل والعباس أمامه ، والنبى صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على آسفل مرقاة من المنبر ، وثار الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال :

ـ « أيها الناس ، بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم . هل خلد نبى قبلى فيمن بعث إليه فأخلد فيكم ؟ ألا وإنى لاحق بربى وإنكم لاحقون به ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم بخير ، فإن الله يقول :

« والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

« وإن الأمور تجرى بإذن الله ، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه . فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ؟

« وأوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم . ألم يشاطروكم فى الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم . ألا ولا تستأثروا عليهم . ألا فإنى فرطكم وأنتم لاحقون بى . ألا وإن موعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يرده علىّ غدا فليكفف يده ولسانه إلا فيما ينبغى .

« يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم ، فإذا بر النـــاس برتهم أئمتهم وإذا فجر الناس عقوا أئمتهم » .

وبينما كان الرسول يعانى المرض نظر العباس إلى ابن أخيه عليه الصلاة والسلام فتذكر أنه قبل ذلك بيسير رأى فى المنام أن القمر قد رفع من الأرض إلى السماء فقصها على النبى صلى الله عليه وسلم فقال له النبى : هو ابن أخيك .

وبعد ذلك صلى الرسول صلاة الصبح خلف أبى بكر ، ولما فرغ من الصلاة التف المسلمون حوله فكلمهم رافعا صـــوته حتى خرج صوته من باب المسجد :

ــ أيها الناس سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم . وإنى والله ما تمسكون على بشىء . إنى لم أحل إلا ما أحل القرآن ولم أحرم إلا ما حرم القرآن .

واشتد المرض بالرسول العظيم ولحق بالرفيق الأعلى ، وكانت آخر كلماته :

ــ جلال ربى الرفيع قد بلغت .

وذهل المسلمون عند سماعهم نبأ وفاة النبى ، حتى عمر بن الخطاب نفسه لم يصدق خبر وفاة النبى فقال :

ــ إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات ، ولكن ما مات ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران عليه السلام ، ثم رجع إلى قومه بعد أربعين ليلة بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رجع موسى ابن عمران عليه السلام ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم .

ولكن أبا بكر الصديق تلقى هذا النبأ ، فدخل إلى بيت الرسول فكشف عن وجهه وقبله وقال :

ــ بأبى أنت وأمى ، طبت حيا وميتا . أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثم لن يصيبك بعدها موتة أبدا .

ثم رد الثوب على وجهه وخرج إلى الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ــ أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت .

ثم تلا قوله تعالى :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » .

وأفاق عمر على كلمات أبى بكر فبكى وعرف أن الرسول قد مات فقال :

ــ إنا لله وإنا إليه راجعون ، صلوات الله وسلامه على رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

والمؤلف لا ينهى كتابه بوفاة الرسول ، بل يأخذنا فى رحلة تاريخية إلى حكم أبى بكر الصديق وبعثه بجيوش المسلمين لمحاربة الفرس والرومان وقتال المرتدين . وكأن المؤلف يرى أن حكم أبى بكر القصير هو امتداد لأيام الرسول ، أو على حد تعبير المؤلف بأن خلافته امتداد لعصر النبى صلوات الله وسلامه عليه لم يبدل ولم يغير ، وكان متبعا ولم يكن مبتدعا ، وكان صاحبه فى الحياة وفى الممات .

٥

الجديد فى هذه الرسالة

إن الكاتب فى هذه الرسالة كما رأينا يقص علينا قصة الإسلام من خلال نبى الإسلام . وهو فى هذه الدراسة يحاول أن يكتبها بطريقة السرد القصصى ، بمعنى أننا نرى فى كتابة القصة أى قصة ، أن المؤلف يرسم الحوادث والأشخاص ثم يتابع تطور هذه الحوادث ونمو الشخصيات إلى أن تصل إلى النهاية !

وهذه الطريقة فى كتابة القصة العادية ربما تكون أمرا سهلا ميسورا ، ولكن كتابة السيرة بهذا الأسلوب عملية شاقة لأن الشخصيات التى تناولتها السيرة كثيرة ، وعملية تتبع هذه الشخصيات التى عاصرت البعثة عملية ليست بالسهولة كما يتصور البعض ، فهى تحتاج إلى إلمام كامل بهذه الشخصيات ونشأتها وظروف حياتها وتتبع نشاطها ، ثم جمع كل هذا فى خط واحد يتلاقى مع الأحداث الكبيرة التى شاهدتها الأمة الإسلامية فيما بعد . القصة بهذه الصورة صعبة للغاية لأنها تحتاج إلى دراسة كبيرة وتتبع لمختلف المراجع مع استبعاد المصادر الضعيفة ، ومع ذلك فقد وفق المؤلف إلى حد كبير فيما كان يرغب فيه . فنحن أمام قصة كاملة متكاملة ، وأمام شخصيات تنمو مع الأحداث ، وأمام أحداث واقعية مثيرة . ومن كل هذه الزوايا كان المؤلف موفقا كل التوفيق فى رسم صورة لعصر ما قبل الرسالة وعصر الرسالة . إنه يحكى لنا العديد من الشخصيات فى العصر الجاهلى والتى تركت بصماتها على الحياة العامة فيما بعد ، وفى نفس الوقت

يتابع بعض الأحداث الكبيرة فى بلاد الفرس والروم . ومدى تتابع الحوادث ونمو الشخصيات وتشابكها ، يرسم صورة كاملة لعصر آن له الأوان أن يأخذ شكلا آخر بظهور النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، ويرسم خريطة واضحة المعالم لدنيا مقبلة على تحول كبير بفضل رسالة هذا النبى العربى الأمى .

إن المؤلف يتابع كل هذه الروافد التى تتجمع فى منبع متدفق ، وهو تيار السيرة .. فإذا بنا بعد نهاية هـذه السلسلة التى كتبها المؤلف وكأننا أمام شاشة ضخمة عرضت عليها قصة السيرة بطريقة جذابة لا يملها القارىء بل يتابع حلقاتها فى شغف !

ولو نظرنا إلى هذه الدراسة التى قام بها السحار من الناحية الأدبية ، فعلينا أن نناقش عددا من العـناصر التى من المألوف أن يتكون منها هذا العمل الفنى ، وهى الخيال ، والأسلوب ، والعاطفة ، والمعانى .. إلى آخره .

فإذا نظرنا إلى جانب الخيال وكيف وظفه السحار فى هذا العمل ، نجد أن الخيال لم يبعد المؤلف عن سياق القصة إنما اتخذه وسـيلة فقط لسد بعض الثغرات التى تعترض تناسق التسلسل الزمنى . وقد استخدم السحار هذا الخيال ببراعة فى سرده لبعض الأحداث ، كما أن تخيله لما يدور فى النفس البشرية فى أثنـاء ما تتعرض له من الأحداث ، رسم صورة جميلة لهذا العرض . تقرأ له مثـلا هـذا الاستهلال الجميل الذى يرسم به صورة لجموع المسلمين فى المدينة ، فنرى كيف رسم خيال المؤلف هذه الصورة بهذا الإيقاع الجميل :

« أنفاس المدينة تسبيح ، شهيقها وحى السماء وزفيرها شكر وحمد لله رب العالمين ، وسمعها قرآن مجيد ، وبصرها ابتهال لبـديع

السموات والأرض العزيز الحكيم ، وفؤادها أنوار قدسية أضاءها نور النور ، وروحها طاهرة قد تحررت من دنس الأرض فصارت مجنحة قادرة على أن تسمو لتصل بروح الروح ، وعزيمتها ماضية زادها مضاء أنها توكلت على الحى الذى لا يموت .

وكان ثوب الليل حالك السواد ، قد هجع الوجود إلا أعين المؤمنين كانت شاخصة إلى السماء قد تحركت ألسنتهم بالدعاء واطمأنت قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب . وكان رسول الله فى داره قانتا آناء الليل ساجدا وقائما يناجى ربه حاضر القلب دامع العين ، حتى إذا ما انتهى من المناجاة ذهب إلى فراشه ، وكانت عباءته قد ثنيت ثنيتين ، فنامت عيناه ولم يعرف قلبه النوم فقد كان متصلا بالملأ الأعلى على الدوام .

ورأى عليه الصلاة والسلام فى النوم أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه وطاف هو وأصحابه مع الطائفين . وفى السحر قبل أن يؤذن بلال بالفجر خرج إلى المسجد متطلق الوجه تغمره سعادة عارمة ، فدخول مكة والطواف بالبيت العتيق وزيارة مراتع الصبا والشباب كانت أمنية من أعز أمانيه وأمانى المهاجرين من أصحابه » .

بهذا المدخل الواقعى الذى رسم من خلال الخيال صورة جذابة لما كان يعتمل فى صدر الرسول وأصحابه ، يمضى بنا المؤلف فى سرد السيرة . ومثل هذا التخيل تراه كثيرا فى كل مواقع القصة التى يوظف فيها المؤلف الخيال توظيفا أدبيا متسقا مع الأحداث ، ليجذبنا إلى متابعة أحداث هذه الدراسة الشائقة !

وقد قسم أحمد أمين الخيال فى كتابه « النقد الأدبى » إلى ثلاثة أنواع :

الأول : خيال خالق ، وهو الذى يخلق العناصر الأولى التى اكتسبت من التجارب صورا جديدة لا تنافى الحياة المعقولة .

والثانى : الخيال المؤلف ، كقول أبى تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة
طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يُعرف طيب عَرف العود

والثالث : هو الخيال الموحى ، وهو ما يغوص فى باطن الشىء ليصل إلى باطن الحياة فيه ، ثم يخرجه إلى الناس كما يشعر به ، كقوله تعالى :

« حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس » .

فالخيال الذى يستخدمه الأديب أو الفنان هو ذلك الخيال الذى يعطى صورة جذابة لما يريد الأديب أن يعبر عنه ، بغض النظر عن أى تقسيم من التقاسيم التى حددها العالم الأديب أحمد أمين . وعلى أى حال فالخيال عند السحار موظف لخدمة غرض واضح محدد ، وهو سد بعض الثغرات التاريخية التى تعترض مجرى سرد هذه السيرة .

* * *

فإذا ما انتقلنا إلى عنصر آخر من عناصر العمل الأدبى وهو الأسلوب ، فإن أسلوب السحار فى هذا السرد التاريخى لأحداث

القصة أسلوب شائق للغاية ؛ فهذا الأسلوب هو حصيلة دراسة طويلة وتمرس طويل فى العمل الأدبى ؛ لأن الأسلوب هو الشخصية كما يقولون ، ولهذا لم يبالغ « ديهاميل » عندما تحدث عن بلزاك الأديب الفرنسى فقال إنه سود مئات الصفحات قبل أن يعثر على بلزاك . وهذه العبارة معناها أن بلزاك ظل يكتب ويكتب إلى أن أصبح له أسلوبه الخاص المميز به ، وكذلك نستطيع أن نقول إن السحار سود آلاف الصفحات قبل أن يعثر على السحار . وهذا معناه ببساطة أن السحار فى هذه الدراسة وهى آخر ما كتب ، قد كتبها بعد أن كان قد تمرس بالعمل الأدبى فأصبح له أسلوبه المميز الخاص به .

فإذا ما اتجهنا إلى عنصر آخر من عناصر الأدب وهو العاطفة ، على أســاس أن العاطفة هى التى تميز بين الكلام العلمى والكلام الأدبى ، بمعنى أن العاطفة تضفى على موضوع الأديب شـيئا من الجاذبية نفتقده فى الكتابات غير الأدبية ، فإننا نلاحظ هذه العاطفة قوية فى كتابات السحار ، ونرى تعاطفه الكبير على الرسول العظيم فى مواقفه الكثيرة التى تعرض لها . فكثيرا ما نراه وهو يسرد أحداث القصة أنه لا يصفها وصفا مجردا كما يصف العالم معادلة كيماوية ، ولكن نحس بعـاطفة المؤلف نفسه وانعطافه مع الشخصيات التى تعرض لها فى بحثه ، مما أضفى على البحث فى كثير من الأحيان روح الأديب لا العالم ، كما أن هذه السمة أعطت لهذه الدراسة مذاقا أدبيا خاصا قربها إلى القارىء .

وإذا ما انتقلنا إلى عنصر « المعانى » فهنا لا يجب أن نقف كثيرا لأن المؤلف يعطينا حقائق تاريخية فى معان واضحة ، محاولا أن يبعد

فى دراسته على قدر الإمكان الأساطير التى حاول البعض إدخالها على الإسلام ، برسم صورة للإسلام المصفى .. للتوحيد الخالص .. فجاءت هذه الدراسة موفقة إلى أبعد حدود التوفيق .

غير أن الملاحظة التى يجب أن نقف عندها بعض الوقت هى قدرة السحار على التحليل النفسى ، أو بمعنى أدق على تصوير أدق المشاعر الإنسانية . إنه يحاول أن يتأمل الشخصيات من الداخل ، ما يجرى فى أعماقها . وهو فى هذا التحليل لا يخرج عن السياق العام لمضمون الدراسة بل يضيف إليها أبعادا أعمق وأوضح ، وهو لا يجرى وراء (موضة) التحليل النفسى بمعناه الذى تقرؤه فى علم النفس المعاصر ، الذى يصور الشخصيات من خلال عقد نفسية معينة تجبر الفرد على أن يسلك سلوكا معينا ، ولكنه يحاول النفاذ إلى أعماق النفس البشرية فى لحظات قوتها ولحظات ضعفها ، فى وقت أن يمسها الخير أو تجرفها الرذيلة ، فى لحظات الفرح ولحظات الألم ، فى وقت الشدة وفى وقت الانفراج ، وبصورة عامة : الشخصية الإنسانية عندما تمر بمختلف المراحل التى يمكن أن يمر بها إنسان عندما يقع فى ظرف ما ، وهو بهذا التحليل يعطى إطارا جذابا لعرضه للسيرة . انظر إلى هذه الصورة النفسية التى رسمها السحار — لو صح هذا التعبير :

« جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث أصحابه فألقوا إليه السمع مستبشرين متفرحين فى الله ، فقد أصبحوا يعيشون مع الله وبالله وفى الله ، يستشعرون هدوءا نفسيا وإن كانت أفئدتهم ترتجف فرقا من خشية الله ، فقد عرفوا لذة النظر إلى الله والأنس به

وتصفية قلوبهم وتزكيتها وجلاءها بذكره ، ففاضت عليهم الرحمة وانشرحت صدورهم وأشرقت فيها الأنوار وانكشفت الأسرار وتألقت فيها حقائق الأمور ، فهم على نور من ربهم قد توكلوا على الله وكفى بالله وكيلا .

كانوا يعيشون فى فراغ دينى وفراغ سـياسى ليس بينهم إلا الأحقاد والشحناء والبغضاء يخشون أن يتخطفهم الموت ، قد ران عليهم حزن أبدى ، تقشعر جلودهم كلما راودتهم فكرة الفناء ، ويزيد شقاءهم ذلك النفور الشديد بين العقل والوجدان ، ويحرك شجن أصحاب الضمائر الحية منهم ذلك الظلم الذى ينزله الأقوياء بالضعفاء وهضم الأغنياء لحقوق الفقراء . فلما اصطفى الله رسوله وآتاه الحكمة والعلم والكتاب المنـير وهداهم ربهم إلى الصراط المستقيم ، إذا بهم يتحررون من الخوف والقلق ورهبـة الموت . فالتعاليم تنزل على الرسول من السماء تؤكد لهم أن الدنيا دار ممر وأن الآخرة دار مقر ، فخضدت أشواك الموت وفتحت أبواب الخلود لشباب دائم قرير العين ، وكبحت جماح الطغيان ، وبذرت فى سويداء القلوب الحب فحببت الأغنياء فى الفقراء وقضت على ما كان يمكن أن ينشأ من صراع بين الطبقات » .

ثم انظر إليه وهو يغوص فى أعماق النبى عليه الصلاة والسلام عندما فقد أمه وهو ما يزال طفلا :

« وأهيل التراب على آمنة ومحمد ينظر يكاد أن ينفطر قلبه أسى وأن تذهب نفسه شعاعا ، لا يكاد يصدق أن يكون هذا المصير نهاية أمه الغالية الحبيبة . ولم يستطع الصبر على ما يرى فانفلت من بين يدى بركة وارتمى فوق القبر ينشج وينتحب ويرويه بدموعه .

وجاءت بركة إليه وحملته بين ذراعيها ودموعها تسيل على خديها ، ثم عادت به إلى رحلها تواسيه وتسح عبراته وتنفض عنه غبار القبر الذى علق به وإن كان الشجن يكتم أنفاسها .

وسرت القافلة عائدة إلى مكة ومحمد وبركة على ظهر بعير واحد وقد لاذا بالصمت وشردت نظراتهما . كانت بركة تسترجع فى ذاكرتها تلك الأيام الحلوة التى أمضتها فى بيت آمنة وتفكر فى ذلك الغـلام اليتيم الذى فقد أمه وأباه ولم يتجاوز بعد السادسة . وامتلأ فؤادها حبا ورحمة لتسبغ عليه من الحنان ما يعوضه عن بعض حنان أبويه اللذين تركاه يواجه الحياة وحده .

وكان محمد يفكر فى أمره ، إنه خرج من مكة مع أمه وها هو ذا يعود وحده بلا ولى ولا ناصر . كانت لرحلتـه بداية وها هى ذى تشرف على النهاية ، وكانت لأمه بداية وقد انتهت أيام حياتها . إن الحياة رحلة لا بد أن تنتهى إلى غايتهـا يوما ، وإن كل شىء له أول لا بد أن يكون له آخر . وراح محمد يفكر فى الحياة وفى الموت وفى الوجود بعد أن واجه قسوة الفناء لأول مرة تفكيرا يتلاءم مع سنه . أقرب إلى الإحساس منه إلى استجلاء كنه الحياة والموت وما بعد الموت . وقد كان ذا عقل راجح وبصر نافذ وإحساس مرهف وتناسق مع الكون سوف تقوده فى أيام نضجه إلى جوهر الحقيقة » .

بهذه الصـورة وغيرها من الصـور التحليلية ، يحلل المؤلف شخصيات أبطال هذه الموسوعة الإسلامية .. فيعطى لدراسته هذا الأريج الفنى الساحر .

إن المؤلف بهذا التناول الأدبى والفكرى لهذا العمل ، قد أضاف إلى المكتبة الإسلامية مرجعا هاما للغاية من أهم مراجع السيرة التى تعتمد على الحقائق التاريخية بأسلوب أدبى رفيع .

كانت أكثر من علامة استفهام تدور فى ذهنى وأنا أدرس تاريخ الفكر الإسلامى . كيف استطاع الإسلام أن ينتشر بهــذه السرعة المذهلة ؟ كيف ارتفعت راياته فوق قارات الدنيــا فى هذه الفترة الزمنية القصيرة ؟ ما هى الطاقة الروحية الضخمة الكائنة فيه والتى لا تلبث أن تنفذ إلى أعماق الإنسان فإذا بنور الإسلام يدخل القلب وينير البصيرة ، ويضىء أمام المؤمن به طرقات الحياة . ويفتح الباب على مصراعيه نحو حياة متوافقة بين الإنســان ونفسه ، والإنسان والعالم من حوله ؟

وكثيرا ما كانت تتراءى لى بعض الصــور الباهرة فى تاريخ الإسلام ، مثل صورة المغول : هذه القوة الماحقة التى زحفت تنشر الرعب والفزع فى أنحاء العالم . إن جيوش المغول بعد أن زحفت على آسيا واجتاحتها تقدمت نحو بغداد عاصمة المسلمين وداستها تحت سنابك خيولها ، وانطلقت بسرعة الإعصار تهدم الحصــون وتدك المدن ، وتهزم الجيوش المدربة ، وتجتاح العواصم . بل إن قبيلة منهم وهى القبيلة الذهبية عبرت نهر التزوين ودخلت روسيا وهزمت أقوى جيوش أوربا عند نهر الفستولا . ما الذى حدث لهؤلاء المغول بعد ذلك ؟ لم تمض سوى سنوات معــدودة حتى دخلوا فى الإسلام وأصبحوا قوة من قواه الرادعة .

بأى قوة استطاع الإسلام أن يدخل قلوبهم ؟ إنها القوة الروحية الكامنة فيه .

والحديث عن الإسلام ومدى ما قدمه للإنسانية فى مجال الحضارة والفكر شيء يدعو للعجب والانبهار ، حتى إننا نجد بعض مفكرى أوربا فى العصور الوسطى يستنكرون من يقول لهم إن باستطاعة أوربا أن تلحق بحضارة العرب !

وقد أعجبنى الفيلسوف الإسلامى محمد إقبال وهو يتحدث عن حاجة العالم إلى تلك الطاقة الروحية الموجودة فى الإسلام ، وكأنه يلخص الفلسفة الإسلامية كلها عندما قال :

— « ليس الدين مجرد تجربة خاصة تجرى داخل المرء دون أن يكون لها تأثير فى محيطه الاجتماعى . إن الإسلام تجربة شخصية مفضية إلى قيام نظام اجتماعى تنبثق منه الأصول اللازمة لنظام سياسى . إن المثل الدينية فى الإسلام متصلة اتصالا وثيقا بالنظام الاجتماعى الذى انبثقت منه ، وإذا كان قيام نظام سياسى على قواعد قومية صرفة من شأنه أن يزحزح مبادىء التضامن الإسلامى فهو أمر لا يمكن أن يتصوره مسلم .

ويقول إقبال بعد دراسته للشريعة الإسلامية على ضوء مشكلة لقمة العيش وصعوبة الحصول عليها فى عالمنا المعاصر ، إن لها حلا موفقا فى ظلال الشريعة الإسلامية ؛ لأنه حيث يتيسر فهم الشريعة فهما جيدا ويتم تطبيقها كما ينبغى ، فإن حق العيش يبدو مضمونا للجميع .

وبدراستى للفلسفة الإسلامية ومحاولتى فهم أبعادها ، بهرنى فيلسوف الإسلام أبو حامد الغزالى فى قوة حججه ومنطقه وتصوفه . كما كان الحنين يشدنى دائما إلى الشاعر إقبال لفهم حقيقة الإسلام . ولقد وقفت طويلا أمام ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام لرسالة المشرق لإقبال الذى كان يرد بها على شاعر ألمانيا (جوته) .. وفى

مقدمة الكتاب يلقى الدكتور عبد الوهاب عزام الضوء على فلسفة محمد إقبال ويلخصها ويعطى صورة صادقة لها فى كلمات موجزة مضيئة ، فهو يقول :

ـ « إن كلمة الشرق عند إقبال هى رمز لمثل عال وأسلوب من الحياة يمكننا إيجازه فى كلمة واحدة هى الإسلام . إن المقارنة بين الغرب والشرق فى نظر إقبال هى مقارنة بين النظر إلى الحياة نظرة بعيدة عن الاعتقاد بالله ، وبين الإيمان بالله القائم على جميع قيم الحياة الأبدية . ولا بد من الاعتراف بأن هذه الفكرة عن الشرق هى فكرة مثالية تمثل الإسلام على حقيقته لا على ما نراه اليوم فى الأقطار الإسلامية . والحق أن رسالة الشرق هذه هى الرسالة التى أهداها إقبال إلى الشرق نفسه .

إن « بيام مشرق » (وهو اسم الديوان المترجم) رسالة أمل إلى عالم اليوم من قبل طبيب يعرف علله . إن بصيرة إقبال فى هذا الظلام الحالك والضباب الذى يكتنف العالم الإسلامى ، قد رأت الفجر الموشك أن يبزغ فى الأفق .

وفلسفة إقبال كما يلخصها الدكتور عزام هى أن الذاتية أساس الحياة ، فالله تعالى ذات ، والإنسان ذات ، وحياة الإنسان تتجلى فى هذه الذاتية ، فعلى الإنسان أن ينظر إلى فطرته ويستخرج كل ما فيها ، والاستقلال فى الفكر والابتكار يبين عن الذاتية ، والتقليد يضعفها أو يميتها . والشدائد والمحن فى هذه الحياة تقوى الذاتية ، والآلام واللذات يكمل بعضها بعضا .

* * *

وكان منتهى أملي أن أجد من الدراسات الإسلامية المعاصرة ما يعينني على تحقيق هذه الأمنية العزيزة على النفس . وهى فهم الإسلام فهما صحيحا .. من مصادر موثوق بها .

فالدراسات الفلسفية مليئة بالجدل الفلسفى الذى يصل إلى حد العقم أحيانا .

وبعض الكتب الأدبية التى تتناول هذه الزاوية الإسلامية كثيرا ما يغلب عليها طابع الخيال .

والبحث عند المستشرقين يعرض الإنسـان لكثير من الترهات والأكاذيب التى وضعوها فى دراساتهم تحت اسم العلم ، وما أبعد العلم عنها . ولكن سرعان ما وجدت هـذا الأمل فى هذه الدراسة التى لها قيمتها التى وضعها عبد الحميد جوده السحار ــ وضعها كتذييل فى آخر كل كتاب من كتب السيرة . فهو فى هذه الدراسة المتكاملة يرسم صورة واضحة عن الإسلام بإبعـاد كل الخرافات والأساطير التى علقت به ، كما يعطى صورة صادقة للإسلام كنظام سياسى ونظام اجتماعى ونظام اقتصادى ، وفى الوقت نفسه يلقى صورة عن الكتب المقدسة السابقة كالتوراة وكيف زيفها اليهود . وما وضعوه فيها من خرافات لا تليق بأنبياء الله من بنى إسرائيل ! .

ويوضح السحار منهجه والهدف منه بقوله :

« حاولت على قدر جهدى أن أمحص الروايات المتباينة . وأن استبعد الآراء التى لا تتفق مع منطق الحوادث وجلال الرسول الكريم حتى فى أيام طفولته وشبابه قبل مبعثه ، وحاولت ألا أتأثر بأى رأى حتى لو أجمعت عليه كل كتب السير العربية أو أغلبها قبل أن أدرسه دراسة فاحصة مقارنة وأستريح إليه .

وقد استبعدت بعض الأحداث التى ليس لها أثر فى تكوين شخصية محمد صلى الله عليه وسلم الفذة ، كقول ابن إسحاق إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لقد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان . كلنا قد تعرى وأخذ إزاره وجعله فى رقبته يحمل عليه الحجارة ، فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر إذ لكمنى لاكم (أى من الملائكة) ما أراها لكمة وجيعة . ثم قال : شد عليك إزارك . فأخذته فشددته علىّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى على من بين أصحابى » .

هذه الحادثة لم يروها السحار لأنه وجد أنها غير ذات دلالة فى حياة الرسول ، كما أن أثر الوضع فيها واضح .

ويتعرض السحار فى دراساته لعملية التبشير برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ويفند ما يحاول المستشرقون به تشويه الرسالة بأن بثوا فى الأذهان أن بحيرا الراهب هو الذى وضع فى رأس محمد صلى الله عليه وسلم فكرة النبوة والرسالة .. ومن الغريب أنهم حاولوا أن ينكروا قصص الإرهاصات بالنبوة كلها إلا قصة التقاء محمد بالراهب الذى كان فى صومعته بعد أستة أميال من بصرى .

والسحار يرى وهو يرد على مزاعم المستشرقين الذين كانوا يرددون أن المسلمين هم الذين وضعوا قصص الرهبان الذين تنبئوا برسالة محمد ليؤكدوا دينهم ، بقوله إما أن تكون هذه القصص موضوعة كلها بما فيها قصة بحيرا ، وإما أن تكون صحيحة كلها بما فيها قصة بحيرا ، أما أن تنكر كل القصص إلا هذه القصة فأمر غير مفهوم ، ومن العجب أن المستشرقين الذين ينكرون الإرهاصات التى سبقت مولد محمد هم أنفسهم الذين يتحدثون عن البشارات التى سبقت

مولد السيد المسيح ، كأنما كانت البشارات وقفا على رسول دون رسول !

إنها مسألة إقرار مبدأ ، فإما أن تعترف بالإرهاصات كلها وإما أن تنكرها كلهـــا ، فإذا كان الوحى قد نزل على إبراهيم وموسى وعيسى ، فلماذا لا ينزل على محمد ؟

وقد أعجبنى قول السحار المنطقى إن لقاء بحيرا بمحمد يستحيل أن يلهم محمدا الحكمة والإيمان والكتاب فى بضـــع ساعات تناولت فيها قريش الطعام الذى أعده لهم بحيرا . بل إنه يرى أن من حسن طالع بحيرا التقاؤه بالرسول ، وإلا لاندثر اسمه كما اندثرت أسماء ألوف الرهبان من قبله ومن بعده .

ويستعرض لنا السحار حياة قس بن ساعدة الأيادى الذى كانت له كلمات فيها أريج القرآن ، والسحار يعلل هذه الظاهرة بأن كلمات قس بن ساعدة الأيادى قد دخلها الوضع بعد الإسلام ، لأن كلماته أبعد ما تكون عن إعجاز القرآن ، وإلا كيف نقارن بين بلاغة القرآن الكريم وبين مثل هذه الكلمات التى قالها قس بن ساعدة :

« شرق وغرب ، ويتم وضرب ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ، وأجاج وغرب ، وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار ، وليل ونهار ، وأناث وذكور ، وبرار وبحور ، وحب ونبات ، وآباء وأمهات .. إلخ» .

ما أبعد المسافة بين هذه الكلمات المرصوصة وبين بلاغة القرآن وروعة موسيقاه الداخلية ، والتى لا هى بالشعر ولا بالنثر ، ولكنه **كلام الله جلت قدرته !**

ويرد السـحار على مزاعم كليمـان هولر ، وجور ، وفردرش

شوليتس وغيرهم الذين يزعمون أن النبى أخذ من أمية بن الصلت لأن أثر الوضع فى سفرهم واضح .

ويتحدث السحار عن الجهاد وكيف شرع ، وكيف أن الإسلام لم ينتشر بحد السيف ولكن بالإقناع ، لأن القرآن يقرر حقيقة لا تدع مجالا للجدل وهى أنه لا إكره فى الدين .

ثم يرى السحار رأى الشيخ شلتوت شيخ الأزهر فى رسالته فى الإسلام والعلاقات الدولية فى الحرب والسلم ، والتى يخلص منها إلى النتائج الآتية :

١ ــ ليس فى طبيعة الدعوة الإسلامية من التعقيد والغموض والمشقة الفعلية ما تحتاج معه إلى إكراه جلى وهو ما كان بالقوة المادية كالحديد والنار ، أو إكراه خفى وهو ما كان بالخوارق الحسية التى تخضع لها الأعناق .

٢ ــ إن الدعوة الإسلامية أخذا من كتاب الله لا تخالف سنة الله حيث ترك الناس وما يختارون لأنفسهم عن طريق النظر والإقناع .

٣ ــ إن الشريعة الإسلامية أخذا من كتاب الله لا تبيح الإكراه وسيلة من وسائل الدعوة إليها .

٤ ــ إن صاحب الدعوة الإسلامية ليس مسئولا أمام ربه إلا عن مهمة الرسالة التى بينها القرآن وهى التبليغ والإنذار ، وليس مطالبا بإيمان الناس حتى يسمح له بإكراههم والعنف عليهم .

٥ ــ إن كتاب الله مصدر الدعوة الإسلامية لا يحترم إيمان المكره ولا يرتب عليه آثاره يوم البعث والجزاء ، فكيف يأمر بالإكراه أو يبيح اتخاذه وسيلة من وسائل الإيمان بهذه الدعوة .

* * *

ويفند السحار المزاعم الذى يرددها المستشرقون حول انتشار الإسلام بالقوة ، ويرد على سخف هذا الاتجاه الذى أنكره بعض المستشرقين المثقفين كتوماس كارليل فى كتابه « الأبطال وعبـادة البطولة » فقال عن محمد : إن اتهامه بحمل الناس على الدخول فى الدين الذى جاء به بالقوة والقهر سخف، لا يقبله عقل ، فكيف يمكن أن يتصور أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته ؟

بل إن د.ف. بودلى فى كتابه « الرسول .. حياة محمد » يقول :

ـ « كان القرشيون أنفسهم سببا من الأسباب التى دفعت محمدا إلى الالتجاء للقوة ، إذ استمر عداء أبى جهل لمحمد فى درجة الغليان ، فقد كان يغير على جماعات المسلمين المتحركة باستمرار ويقاتل أية جماعة منعزلة يكمن لها . وقد أغار على ضواحى المدينة وأتلف الزروع والحدائق ، فأظهر لمحمـــد أن شعوره لم يتبدل وأن هدفه لا يزال قتله . فلم يكن هناك إلا حل واحـــد من وجهة نظر الجانبين وهو القتال .

وما قر رأى محمد على ذلك حتى أقر مبدأ سيصبح عقيدة غير شرعية للمؤمنين بالجهاد ، فالجهاد مع أنه ليس فرضا دينيا سيقوم بما لا يقوم به شىء آخر فى سبيل حمل الإسلام إلى العالمين » .

ويستعرض السحار رأى « جيمس ميتشنر » فى مقاله « اخترت الدفاع عن الإسلام » الذى يقول فيه إنه لم يحدث فى التاريخ أن انتشر دين بهذه السرعة ، فعند وفاة محمد سنة ٦٣٢ ميلادية كان الإسلام يحتل جانبا كبيرا من شبه الجزيرة العربية ، لم يلبث أن ضم إليه سوريا وبلاد الفرس ومصر والتخوم الجنوبية لروسيا ، وامتد إلى

شمال إفريقيا حتى بلغ مداخل أسبانيا . وفى الزمن الذى جاء بعد ذلك كان تقدم الإسلام باهرا ، واعتقد الغرب أن الإسلام ماكان لينتشر مثل هذا الانتشار ما لم يستخدم المسلمون السيف ، ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الرأى ، فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة .

ويستعرض السحار آراء العقاد فى كتابه « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » ورأى على منصور فى كتابه « الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام » اللذين يريان أن المسلمين لم يبدءوا العدوان ولكن كانوا دائما يردون على العدوان .

ويتابع السحار دراسته الشائقة فبرهن على أن معارك المسلمين مع الفرس والرومان كانت أيضا دفاعا عن أنفسهم ، وأن كلا الدولتين هما اللتان بدأتا بالعدوان ، ويستند على سبيل المثال إلى قول ابن تيمية فى رسالته القتال عندما قال :

« وأما النصارى فلم يقاتل النبى أحدا منهم حتى أرسل رسله إلى قيصر والمقوقس والنجاشى وملوك العرب بالشرق وبالشام ، فدخل فى الإسلام من النصارى وغيرهم من دخل فعمد النصارى بالشام فقتلوا بعض من أسلم ، فالنصارى هم الذين حاربوا المسلمين وقتلوا منهم بغيا . فلما بدأ النصارى بقتل المسلمين أرسل محمد صلى الله عليه وسلم سرية أمر عليها زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبى طالب ثم عبد الله بن أبى رواحة ، وهو أول قتال قاتله المسلمون بمؤتة من أرض الشام ، واجتمع على أصحابه خلق كثير من النصارى قيل إنهم مائة ألف ، واستشهد أمراء الجند رضى الله عنهم واحدا بعد الآخر فأخذ الراية خالد بن الوليد .

وبعد أن يوضح السحار بالدليل القاطع أن المسلمين لم يحاربوا

إلا ردا على عـــدوان ، يستشهد بالمستشرق الإنجليزى « ستيفن رانسمان » عن العوامل التى مهدت للفتوح الإسلامية :

« تستطيع أن تقول إن السهولة التى لاقاها المسلمون فى استيلائهم على هذه المناطق التى استولوا عليها ترجع إلى ذلك الضعف الذى انتاب الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية ، وإلى عدالة المسلمين فى حكمهم . وأكبر دليل على ذلك أن البلاد التى فتحوها لم يحاول أهلها زحزحتهم عنها وما ذلك إلا لأنهم وجدوا حكمهم أفضل من حكم من سبقهم ، فعندما سمع المصريون بما يفعله المسلمون فى بلاد الشام أبدوا كامل اســـتعدادهم لقبول ما يجرى هناك وتمنوا أن يعجل المسلمون بمهاجمة مصر ليخلصوهم من الظلم الذين يرزحون تحته » .

وقال الكونت هنرى دى كاسترو فى كتابه « الإسلام خواطر وسوانح » :

« إن محاسن المسلمين للمسيحيين زادت فى بلاد الأندلس حتى صار سكانها فى حالة أهنأ من التى كانوا عليها منذ أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم (القوط الغربيون) » .

وقال جوستاف لوبون فى كتابه « حضارة العرب » إن العالم لم يعرف فاتحا أرحم من المسلمين . وقال أيضا يقارن بين رحمة المسلمين وتعسف غيرهم :

« كان أول ما بدأ به ريتشارد قلب الأسد الإنجليزى أنه قتـــل أمام معسكر المسلمين ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم ، ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب مما أثار صـــلاح الدين الأيوبى النبيل الذى رحم نصارى القدس فلم يمسهم بأذى ، والذى أمد فيليب قلب الأســـد

بالمرطبات والأدوية فى أثناء مرضه . إن الهوة سحيقة بين تفكير الرجل المقدس وعواطفه ــ يقصد صــــلاح الدين ــ وبين تفكير الرجل المتوحش ونزواته » .

ويأخذنا السحار فى رحلته حول آراء كثير من المستشرقين أمثال « دوزى » و « يورجا » المؤرخ الأوربى وغيرهم . ولكن يلفت النظر ما قاله البارون ميشيل دى كوب وهو أستاذ القانون الدولى بمعهد الدراسات الدولية فى لاهاى ، ملخصا أثر الإســلام على القانون الدولى بعد أن يتحدث عن قواعد التشريع الإسلامى بقوله :

ــ « وهذه هى مختلف القواعد الشرعية الإسلامية التى عمل بها لتخفيف وطأة الحروب من القرن السابع إلى القـــرن الثالث عشر للميلاد . فهى إذن أسبق بأمد طويل على الأفكار والمبادىء القانونية المماثلة والتى بدأت تشق طريقها خلال الهمجية التى استولت على الحياة الدولية الأوربية خلال القرن الثالث عشر ، مما يدل على أثر القواعد الإسلامية فى القانون الدولى الأوربى » .

الإســـــلام والمرأة :

ومن الدراسات الممتازة تلك الدراسة التى كتبها الأديب الراحل عن وضع المرأة فى الإسلام . فليس هناك تشريع من قبـــل الإسلام أو من بعده استطاع أن يعطى المرأة الحقـــوق التى أعطاها إياها الإسلام ، ولم تكرم شريعة المرأة كما كرمها الإسلام ، وتكفى نظرة إلى وضع المرأة قبل الإسلام وبعده لتظهر الصورة الحقيقية للمرأة ومدى تكريم الإسلام لها .

ولكى يبرهن السحار على القيمة الحقيقية للعطــاء الذى منحه

الإسلام للمرأة ، فإنه يستعرض وضع المرأة فى التاريخ .

ففى مصر الفرعونية كان تعدد الزوجات مباحا ، كما أننا نرى فى قصة الأهرام عن الملك المتوفى أنه (يأخذ النساء من أزواجهن عند رغبته) ، أى أن للملك حق اغتصاب أى زوجة من زوجها كما هو الحال بعد ذلك عند أمراء الإقطاع فى العصــور الوسطى . كما أن سبايا الحروب كن يوزعن على الجنــود ، وكان التسرى منتشرا بين الطبقات الدنيا . ولا يخلو عصر من العصور من النساء اللاتى لا عائل لهن ولا حرفة يعشن منها غير البغـــاء ، وكان الأبناء ينسبون إلى الأمهات . وفى عصر الدولة الوسطى كان نظام التوريث فى أسرات النبلاء يأتى عن طريق النساء لا الذكور . فلم يكن الابن هو الذى يرث وإنما يرث ابن كبرى البنـــات ، وكان والد الأم هو الوصى الطبيعى للشاب .

عرفت البشرية منذ فجر الإسلام تعدد الزوجات ، وإن قارىء التوراة ليجد أن أنبياء بنى إسرائيل قد اتخذوا أكثر من زوجة وتسروا بأكثر من محظية ، حتى قيل إن قصر ســليمان كان به أكثر من ألف امرأة . ولم يأت فى الإنجيل نص صريح يدل على تحريم الزواج من أكثر من واحدة . وإن عدم زواج السيد المسيح قد أوقع المسيحيين المؤمنين فى الحرج حتى صار عندهم أبغض الحلال إلى الله الزواج » .

فإذا ما جئنا إلى الجزيرة العربية وجدنا نظام تعدد الزوجات ، ووجدنا السادة يرغمون إماءهم على البغاء ، ولهذا نجد النبى يقول :

« لا تقل عبدى وعبدتى بل قل فتاى وفتاتى » .

ثم نهى القرآن عن البغاء : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا » .

وانتشرت عادة وأد البنات فى الجزيرة العـربية ، ونهى القرآن عن ذلك :

« وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسـودا وهو كظيم ، يتوارى من الغيظ من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون » .

ويمضى المؤلف وهو يروى لنا كيف مرغ الشرف فى الأوحال عن طريق نظام الاستبضاع ، وهو إرسال الزوجة لرجل نابه أو شاعر مفوه أو حاكم حكيم لإنجاب ذرية قوية فيها بعض صفات الرجل القوى الفحل الذى يتمنى الزوج أن يأتى ابنه على مثاله !!

وكانوا يجمعون بين الأختين . ويخلف الرجل على امرأة أبيه ، وكانوا يسمون من يفعل ذلك الضيزن .

ويرد السحار على الحملات المغرضة التى شنت على الرسول لأنه تزوج أكثر من واحدة . وهذا تجن على الرسـول ، فالرسول لم يعرف عنه إلا الطهارة قبل زواجه . وظل مع خديجة ولم يتزوج عليها طوال حياتها إلى أن وصل إلى سن الخامسة والخمسين . أما السبب فى زواجه بعد ذلك فلم يكن المتعة أو الشهوة ولكن الرأفة والرحمة ، أو على حد تعبير أحد الكتاب المسيحيين :

« من الممكن تفسير تزوج النبى المرات المتتالية بشتى التفسيرات ، ولكن يجب ألا يغرب عن البال أنها كانت وليدة الشفقة والمواساة نظرا للحالة النفسية التى كانت عليها من تزوج منهن . فقد كن من الأرامل لا مال ولا جمال . بل كن على النقيض من ذلك يستحققن كل عطف » .

ويعلق السحار على ذلك بقوله :

« سبق لنا القول بأنه ما كان يخشى على رجل قضى حياته حتى الخامسة والخمسين وهو على خير ما يكون من الطهر والعفاف أن ينغمس بعد ذلك فى اللذات . فإذا كانت فتنة النساء لا تؤثر فيه وهو فتى ممتلىء الشباب فكيف بها تأسره وهو رجل رزين كامل النضج العقلى ؟ » .

ويستعرض السحار قصة زواج النبى من عائشة ، فهل حقيقة أنه تزوجها وهى ما تزال فى السادسة من عمــــرها ؟ إنه يستعرض رأى مولاى محمد على فى سن عائشة عندما بنى عليها النبى فيقول :

ــ « كان لفقد خديجة وقع أليم فى نفس النبى فحزن عليها حزنا عميقا ، فلما رأت إحدى المؤمنات ذلك أشارت عليه أن يتزوج عائشة ابنة صديقه أبى بكر . وفاتحت أبا بكر فى ذلك ، وكان لعائشـــة مواهب بارزة لمسها النبى كما لمسها أبوها . وكانت هذه المواهب كفيلة بأن تجعلها سيدة المستقبل الجديرة أن تكون زوجة الهادى الأعظم الذى سيكون له أبلغ الأثر فى هداية البشر . وكان فى طريق إتمام هذا الزواج عقبتان :

أولاهما : أن عائشة كانت مخطوبة لجبير فما كان فى استطاعة أبيها أن يقبل تزويجها حتى يفصل فى أمر جبير ، ولكن كان جبير نفسه يرغب فى فصم رباط الخطبة لأن الهوة التى بين المسلمين والمشركين قد اتسعت .

وأما العقبة الثانية فهى عدم بلوغ عائشـــة السن التى تؤهلها للزواج ، وقد أمكن تذليل هذه العقبة بتأجيل الدخول بها ، وعلى هذا فإن حفل الزواج لم يكن فى الواقع سوى حفل خطبة وكان ذلك فى التاسع من شوال فى السنة العاشرة من نزول الوحى .

وإنها لفرصة طيبة لدفع أكذوبة شاعت وراجت عن سن عائشة . فمن المسلم به أنها لم تبلغ السن التى تؤهلها للزواج ، وكذلك من الواضح أنها لم تكن فى سن السادسة كما زعموا فإنهـا كانت فى السن التى تجيز خطبتها فخطبها جبير ، وعلى ذلك فإنها كانت على أبواب السن التى تؤهلها للزواج . ومن الثابت أن فاطمة بنت النبى تكبرها بخمس سنوات ، ومن الثابت أيضـا أن فاطمة ولدت أيام إعادة بناء الكعبة ، أى قبل أن يرسل النبى بخمس سنوات ، فتكون عائشة قد ولدت سنة نزول الوحى فكانت سنها لا تقل عن العاشرة عندما زوجت من النبى فى السنة العاشرة للرسالة ، وإن شهادة عائشة نفسها لدليل على ذلك فقد قالت إنها كانت تلعب مع أترابها عنـد نزول سورة القمر وهى السورة الرابعة والخمسين ، وأنهـا كانت تحفظ بعض آيات السورة وهذه السـورة لم تنزل إلا فى السنة الخامسة للرسالة ، وعلى ذلك فما قيل إنها كانت تبلغ السادسة فى السنة العاشرة للرسالة عندما تزوجها النبى إن هو إلا قول كاذب ، وإلا كان مولدها يوم نزول سورة القمر وهو ما تنفيـه هى بقولها إنها حفظت بعض آياتها عند نزولها .

ومن هذا كله يفهم أن سنها لم تكن أقل من عشرة أعوام بحال عندما خطبها النبى ، ولما كانت المدة بين الخطبة والدخول بها لا تقل عن خمس سنوات . فما دخل النبى بها إلا فى السنة الثانية للهجرة ، وعلى ذلك يكون سنها يوم بنائه بها خمسة عشر عاما . أما دعوى أنها كانت فى السادسة عنـد عقد الزواج ، وأن النبى بنى بها وهى فى التاسعة فهى دعوى خاطئة لأن معنى هذا أن الفترة بين العقـد والزواج كانت ثلاثة أعوام ، وهذا خطأ تاريخى لا شك فيه » .

ويتابع السحار دراسته ذات القيمة فيستعرض الحقوق التى أعطاها الإسلام المرأة وكرمها بها . فالمرأة فى الإسلام لها حقوق البيع والشراء وحق الامتلاك ، والإسلام ينظر إليها كإنسان سوى له كافة الحقوق والواجبات ، فهى ليست كما يراها رجال الكنيسة الذين يرون أن المرأة شيطان وأنها جسد بلا روح . فنحن نرى مثلا «سان بونافنتور» يقول لتلاميذه :

« إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنا بشريا بل ولا كائنا وحشيا ، وإنما الذى ترونه هو الشيطان بذاته ، والذى تسمعون هو فحيح الأفعى » ! .

هذا ومن المعروف أنه كان من حق الرجل وحده قديما أن يملك ولكن لا يحق للمرأة أن تعمل بالتجارة ، وبالتالى لم تكن شخصا بمعنى الكلمة .

ولكن الإسلام شرع المساواة بين الرجل والمرأة فيما هو من خصائص الإنسانية فى الدنيا والآخرة . قال تعالى :

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » . وغير ذلك من الآيات كثير يتيح للمرأة أن تكون مساوية للرجل ، كما أنه أتاح لها العلم ، فالرسول العظيم يقول إن العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة . وكانت أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنه تتعلم الكتابة فى الجاهلية على يد امرأة كاتبة تدعى الشفاء العدوية ، فلما تزوجها عليه السلام طلب من الشفاء أن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة .

وما أعظم الإسلام عندما صان المرأة من التبذل والكدح فى

الحياة فأعفاها من كافة أعباء المعيشة وألقاها على كاهل الرجل . كما أن الإسلام قد ألقى على الرجل المسئوليات الاقتصادية فى الزواج ، والزواج فى نظر الإسلام هو الوسيلة الوحيدة لتنسية عواطف الحب والخير . فالزواج حسب النظام الإســـلامى الاجتماعى هو الحالة الطبيعية التى ينبغى لكل رجل وامرأة أن ينـــدمج فيها . قال عليه الســـلام :

« إنى أتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

والزواج فى الإسلام ميثاق يعقد على أساس الحب المتبادل بين الرجل والمرأة فى حضور شهود . ومن المحتم إعلان ميثاق الزواج ، فالإعلان هو الفارق الوحيد بين الزواج والسفاح . ويجب إعلان كل عقد زواج ولو بدق الدفوف : « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه فى المساجد واضربوا عليه بالدفوف » .

ولا تفقد المرأة شخصيتها بالزواج بل إن لها دورا إيجابيا فيه :

« كلكم راع ومسئول عن رعيته ، فالإمام راع ، والرجل راع ومسئول عن أهله ، والمرأة راعية ومسئولة عن بيت زوجها » .

كما أن الإسلام يحث على معاملة المرأة بالحسنى ، فالزواج شركة مبنية على التفــاهم وإلا انفصمت عراها : « وأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » .

ولم يفرق الإسلام بين الزوج والزوجة فى طلب الطلاق ، فقد جاءت جميلة زوجة ثابت بن قيس إلى النبى تطلب الطلاق من زوجها قائلة :

« يا رسول الله إنى لا أجد عيبا فى ثابت فى خلقه أو دينه إلا أنى لا أطيقه » .

فلما سئلت هل ترد له البستان التى أمهرها إياه وأجابت بنعم ، أمر النبى ثابتا أن يسترد بستانه ويطلقها .

ويستعرض الباحث وضع المرأة فى مختلف الديانات ، والوضع المجحف للمرأة . فنحن نرى أن المسيحية ترفض الطلاق لأنه عقد عقد فى السماء فلا ينبغى أن يفصم على الأرض ، وترى بعض المذاهب المسيحية ألا يفسخ الزواج إلا فى حالة الخيانة الزوجية اعتمادا على ما ورد على لسان المسيح كما يقول إنجيل « متى » : « من طلق امرأته إلا بسبب الزنا يجعلها تزنى » . وفى إنجيل متى نراه يقول : « من يتزوج مطلقة يزنى » . وبهذا يتحول الزواج فى ظل هذه الشرائع إلى حياة أقرب إلى الجحيم منها إلى حياة آمنة مستقرة للإرادة الإنسانية دخل فيها . هذا هو الفرق بين سماحة الإسلام وسعة أفقه وتزمت هذه المذاهب الغريبة . فإذا رأى الزوجان مثلا أن استمرار حياتهما الزوجية بينهما متعذر من جميع الوجوه ، وأراد كل منهما أن يفارق الآخر بالمعروف ليغن الله كلا من سعته ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل لا تقرهما على ما يريدان وتأمرهما بأن يبقيا رغم أنفيهما على حال يتعذر الإبقاء عليها ولايريد أحد منهما أن يبقى عليها وليكن ما يكون ، لأن « ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان » .

« وليت شعرى ما بال إلههم هذا الذى بلغ فى جحوده وعجزه أن يجمع ولا يستطيع أن يفرق ؟ ! ثم لماذا ينسبون الجمع لله وينسبون التفرقة للإنسان ، حتى التفرقة التى يقتضيها الصالح العام ويتحقق بها الخير والاستقرار العائلى والاجتماعى » .

فالطلاق فى الإسلام هو حل أقرب ما يكون إلى الجراحة التى

لا بد من إجرائها ، فلا يقرها إلا إذا تعذر الشفاء بغيرها . إنه وسط بين الإفراط والتفريط .

ولكن هل ظلم الإسلام المرأة عندما أعطى الرجل ضعف حظها منه ؟

بالطبع لم يظلم الإسلام المرأة لسبب بسيط جدا ، وهو أن الرجل مكلف بالإنفاق على الأسرة . وعلى الرجل وحده تجب نفقة الأقرباء على حين أن المرأة لم يكلفها الإسلام حتى بالإنفاق على نفسها . فكان من العدالة إذن أن يكون حظ الرجل من الميراث أكبر من حظ المرأة حتى يكون فى ذلك ما يعينه على القيام بهذه التكاليف الثقيلة التى وضعها الإسلام على عاتقه وأعفى المرأة منها حدبا عليها وضمانا لسعادة الأسرة .

المال فى الإسلام :

المال فى الإسلام له وظيفة اجتماعية . ليس المال وسيلة للاستبداد أو الطغيان ، أو تحكم طبقة فى طبقة ، أو وسيلة لأن يعيش البعض فى جنة على الأرض وآخرون يعيشون فى الجحيم ، إنما المال فى الإسلام وسيلة وليس غاية فى حد ذاته . ولو فهمت وظيفة المال فى المجتمع كما جاء بها الإسلام لسادت الإنسانية حياة آمنة مستقرة ، ويكفى أن نعرف أنه فى زمن عمر بن عبد العزيز امتلأت خزائن الدولة بالمال ، ولم يوجد فى المجتمع الإسلامى من هو فى حاجة إلى ذلك المال ، مما اضطر الخليفة العادل أن يدفع من الخزانة ما يعتق به الرقيق ليحولهم إلى أحرار .

وعبد الحميد السحار فى هذه الدراسة التى قام بها حول وظيفة المال فى الإسلام قدم دراسة مستفيضة عن وظيفة المال فى المجتمعات

الرأسمالية والمجتمعات الاشتراكية وقارن بينهـــا وبين ما جاء به الإسلام . ومن هنا نرى الفرق الشاسع بين النظم التى وضعها البشر وهى قابلة — على كل حال — للتغيير والتبديل تبع تطور المجتمع - وبين الأسس التى وضعتها السماء ويمكن أن تعيش فى كل زمان وفى كل مكان .

والمؤلف يستعرض بنا التـــاريخ الاقتصادى منذ أن بدأ نظام الاتجار بالمقايضة إلى أن ظهرت العملات وظهر الربا ، أو ما يسمى فى العصر الحديث بالفائدة ، واستعرض كل ذلك من خـــلال العصور القديمة قبل الإســـلام عند الفرس وعند الرومان ، وعند العرب فى الجزيرة العربية إلى ظهور الإسلام ، ويتابع ذلك كله عبر التاريخ إلى العصور الحديثة ، وعقب قراءة هذه الدراسة يتضح الفارق الشاسع بين تشريع البشر وتشريع السماء . ولعل أوضح ما يبرز مساوىء النظم الاقتصادية المعـــاصرة هذا القول الذى لخص به السياسى الإنجليزى ونستون تشرشل مبادىء هذه النظم بقوله :

« الرأسمالية توزيع الخير على الناس دون مســـاواة ، وأما الاشتراكية فتوزيع البؤس على الناس بالتساوى ، فلنحاول إذن أن نتخذ نظاما يحقق أكبر خير لأكبر عدد من الناس » .

وبعد أن يستعرض السحار الطعنات التى وجهها أنجلز وماركس إلى المبادىء المسيحية ، على أساس أن هذه المبادىء لا تعارض فى وجود طبقة حاكمة ذات سلطان ظالم فكل ما تقدمه للناس هو أمل المتقين فى أن يتحول الحاكمون إلى الخير ، يحاول أن يجد إجابات واضحة عن عـــدد من علامات الاستفهام التى تبرز ، إلى الجوانب المشرقة فى الإسلام كنظام عالمى فيه خير البشرية كلها .

فهل يدافع الإسلام عن ظلم الطبقات العاملة ؟ وهل يقبل الإسلام وجود طبقة حاكمة ذات سلطان ظالم ؟ وهل إذا وجد السلطان الظالم فإن الإسلام يأمر أتباعه أن يقفوا مكتوفى الأيدى دون أن يخلعوا طاعته من أعناقهم ؟ وهل يؤجل الإسلام مشاكل علاج أمراض المجتمع ليوم الحساب ؟ هل يرى فى شرور الظالمين للمظلومين عقابا للمظلومين على ذنب اقترفوه ؟

إن الإسلام يعالج شئون الدنيا مثلما يعالج شئون الآخرة ، فهو دنيا ودين ، يساوى بين الخاضعين لأحكامه فى الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر . والبر والفاجر ، والملك والسوقة ، والغنى والفقير . والقوى والضعيف . الناس لآدم والمؤمنون إخوة ، والناس سواسية أمام الشريعة العادلة . لصاحب العمل حقوق وعليه واجبات . وللعمال حقوق وعليهم واجبات ، لا تمكّن لطبقة على حساب طبقة . بل العدل المطلق للجميع . لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . لا المال يرفع صاحبه ولا الفقر يحط من شأن الفقير . إنه دين تلتقى فيه المثالية بالواقعية . وتمتزج فيه الروحانية بالمادية ، ويسعى فيه المرء لخير الدنيا والآخرة . ويحاول أن يضم فى إهابه السماء والأرض . إنه دين العقل والحكمة والفقه ، دين الفطرة » .

ويستعرض المؤلف رأى نيتشه فى مساوىء النظم الاقتصادية المعاصرة التى يدينها بقوله :

— إننا نحتاج لكى نحل عقدة المسائل إلى ثورة وتجديد كامل للمجتمع ، وقبل أن توضع الحياة الاقتصادية فى مكانها المتواضع الذى يناسبها يجب أن تخضع للحياة الخلقية والروحية فى الجماعة ، ويجب

أن تكون العدالة لا الثروة مقياس المنفعة . العدالة ؟ إنها على النقيض من روح الرأسمالية السائدة ، والاشتراكية ليست سوى تقليد العمال لسادتهم تقليد القردة ، وإذا أردنا أن نعالج العمال من داء الاشتراكية فلا بد أن نعالج الطبقات الراقية نفسها من داء الرأسمالية .

والسحار يرى أن الحل ليس هذا الذى يقرره نيتشه ؛ بل الحل كما يراه لا يحتاج إلى ثورة بل عودة إلى النظام المالى فى الإسلام ، ففيه محاسن الرأسمالية دون عيوبها ، ومحاسن الاشتراكية دون عيوبها . والمال فى الإسلام ليس معبودا بل إنه فتنة ، ولا يقوم بوظيفة اقتصادية وحسب بل إن وظيفته فى المقام الأول وظيفة اجتماعية تستهدف الخير العام للجميع » .

ولكن ما هو تعريف المــــال ؟

إنه ببساطة ما يستحوذ عليه الإنسان من طيبات الله . فالهواء وإن كان ذا قيمة لا تقدر لأنه بدونه تتوقف الحياة ، فقد قضت حكمة الله أن يكون لكل الناس فهو ليس مالا ، أما الأرض وما عليها وما فى داخلها فهى مال :

« يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا الله » .

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم » .

فالله قد أحل لنا الطيبات وحرم الخبائث . نكسب طيبا وننفق طيبا فتطيب أنفسنا وتتآلف قلوبنا ونصبح بنعمة الله إخوانا .

والمال فى الإسلام ليس مال أحد من البشر ولكنه مال الله والناس مستخلفون فيه ، فلا ينبغى كسب المال إلا من السبل التى يحددها صاحب المال وأن ينفق فى السبل التى يحددها للإنفاق ، فإن أساء

المستخلف فى مال الله ولم يوفه حقه ، فللحاكم أن ينزع ذلك المال منه وأن يوجهه للخير العام . فالحكومة هى الساهرة على تنفيذ أوامر الله ونواهيه ، فإذا لم تقم بواجبها فعلى الشعب أن ينحيها عن الحكم ، فإن قصر الشعب فإن الله يذهب الجميع ويأتى بخلق جديد » .

وإذا كان الإسلام له وظيفة ، فهو فى وظيفته كالدم لكى يؤدى دوره لا بد أن يقوم بدورته كاملة فى الجسم . كذلك المال لا بد أن يتداول ، ولهذا فقد ذم الإسلام البخل وحرم الكنز وحض على الإنفاق .

والإسلام لا يقبل أن يكون المال فى أيدى قلة من الناس لا ينفقونه فى الخير العام :

« ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » .

وقد حرم الإسلام الربا تحريما قاطعا لأنه ابتزاز لأموال المؤمنين ، ولأنه لا يتفق مع فلسفة الإسلام التى تنادى بالمحبة والعدل وتحريم الظلم ووضع أسس للتجارة السليمة ، وحرم احتكار السلع . والزكاة غير الربا ، فالربا جشع وطمع واستغلال وضرر بالخير العام ، بينما الزكاة سماحة وجود وإنفاق فى سبيل الخير العام ، استجابة لأمر الله تعالى صاحب المال :

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات » .

والإسلام جعل الزكاة أساسا للدين وقرنها بالصلاة :

« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » .

وبعد أن يشرح المؤلف وظيفة الاقتصاد شرحا وافيا وشروطه

وأنواعه وما يجب له وما يجب عليه . والقيمة الاقتصادية الضخمة لهذا المبدأ العظيم من مبادىء الإسلام الحقيقى ، يشير إلى كتاب الخراج لأبى يوسف يعقوب بن إبراهيم وزير مالية هارون الرشيد .. وهذا الكتاب هو أول كتاب يبين موارد الدولة فى التاريخ وسبل إنفاقها ، وأول كتاب يهتم بالمالية والاقتصاد قبل أن يهتم آدم سميث بالاقتصاد بأكثر من ألف عام ، ولو أنصف الاقتصاديون لقالوا إن أبا يوسف أبو الاقتصاد وأبو المالية العامة . ففى هذا الكتاب الذى وضعه أبو يوسف يتحدث عن كل ما يتعلق بالاقتصاد الإسلامى . ومن خلال عرضه لهذا الكتاب تظهر الصورة المشرقة للاقتصاد الإسلامى ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى عدد من اللغات الحية .

ويرى السحار أن يدرس رجال الاقتصاد والقانون المعاصرون هذا الكتاب العظيم ، وهم لو فعلوا لخرجوا بحقيقة لا تقبل الجدل وهى أن أغلب النظريات الاقتصادية المعاصرة ، وأغلب القوانين والشروح الفقهية والأجنبية إنما هى بضاعتنا ردت إلينا !

خرافات التوراة :

ومن الدراسات الجيدة والهامة التى كتبها عبد الحميد جوده السحار تلك المتعلقة بدراسته المستفيضة للتوراة وتحليله لأثر التأليف فيها . فالتوراة أعيدت كتابتها أيام النفى فى بابل ، ومن خلال هذا التأليف والافتراء على الله امتلأت التوراة بالأكاذيب والأساطير التى يرفضها العقل والمنطق ، كما أن فيها من التشويه وانحطاط الأخلاق ما يتنافى مع أى دراسة موضوعية . فالتوراة ترى فى كثير من أنبياء بنى إسرائيل فسقة .. زناة .. عصاة ، بل إن الله نفسه لم ينج فى تصورها المريض من إظهاره فى صورة أقرب إلى صورة الإنسان فى

لحظات غضبه ولحظات سعادته .

« فالتوراة التى نزلت على موسى عليه السلام كانت بلغة قدماء المصريين ولا صلة بينها وبين التوراة التى كتبها « عزرا الكاتب » فى المنفى ، « فعزرا » بعد أن استنار بأساطير البابليين وعقائد قدماء المصريين كتب التوراة التى بين أيدينا » .

ولكن لماذا غيروا التوراة ؟

« غيروها بما يتفق مع مصالحهم الشخصية والدنيوية ، لأنه كان من تقاليد حكماء صهيون أن يقدسوا أعمال الذين يقدمون خدمات جليلة لإسرائيل وأن يضموا تلك الأعمال إلى توراتهم ، فالتوراة فى حقيقة الأمر سجل لأعمال اليهود . فلو قدر لهذا التقليد أن يطبق فى هذه الأيام فلن يذكر ترومان رئيس جمهورية الولايات المتحدة فى سفر شاريت إلا كما ذكر قورش شاهنشاه إيران فى سفر عزرا ، ولن يذكر جونسون ونيكسون فى أسفار بن جوريون وموشى ديان وجولدا مائير إلا كما ذكر داريوس دارتخشستا وأخشويرش فى أسفار نحميا وإستر . ولو قدر لهذه الأسفار أن تضم إلى التوراة فهل سيتلوها المسيحيون فى صلواتهم » ؟ !

نحن نرى فى التوراة تقديم القرابين وشواء اللحم لإدخال السرور على قلب الرب ، وهذه بالطبع وصايا لمن لهم مصلحة مباشرة فى لحوم الأضاحى فجعلوا التقدمة كفارة عن الذنوب » .

أين هذا من تعاليم موسى الحقيقية كما رواها القرآن الكريم ؟

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى

ثمنا قليلا . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون . وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » .

« وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حُسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون . وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون » .

هذه هى شريعة موسى على حقيقتها وهى تتسق مع منطق العقل ، وتتسم بالمفعولية . لأن الدين — أى دين — إذا لم يكن يحث على الفضيلة وعلى مكارم الأخلاق فهو فى هذه الحالة ليس دينا ، ولكنه فلسفة شيطانية بغيضة لا يمكن أن يتصور أنها وحى السماء .

بل إننا نجد كما لاحظ « برستيد » أن الكثير من حكم سفر الأمثال العبرانى مأخوذ من أمنيموبى المصرى !!

ونلحظ فى هذه الدراسة أن السحار يضع خطوطا هامة تحت حقائق يجب أن نعرفها ، منها مثلا أن موسى عليه السلام من نسل لاوى ، ولما كان اليهود من نسل يهوذا فلم يكن موسى يهوديا ، وإنه من الخطأ التاريخى أن ينسب موسى عليه السلام إلى اليهود ، كما أنه من أكبر الخطأ أن يقال إن إبراهيم كان يهوديا ، فلا يجوز أن ينسب الجد إلى الحفيد . وقد حاور اليهود النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الحقيقة فجاء رد القرآن ودحض زعم اليهود :

« يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وأما أنزلت التوراة

والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » .

والذى يقرأ التـــوراة لا شك يستوقفه ما فيها من الترهات والخرافات التى لا تتفق مع رسالة نبى أو رسول ، فهل يمكن أن يكون نشيد الإنشاد الذى قيل على لسان سليمان وملىء بالعبارات الجنسية الداعرة ، هل يمكن أن يكون ذلك على لســـان نبى كسليمان ؟ يستحيل ذلك منطقيا ..

ويعلل السحار ذلك بقوله :

ـ « إن بعض الأمثال فى سفر الأمثال كانت من وضع امرأة ، فلماذا لا يكون هذا النشيد من وضع يهــودية كانت تحسن نظم الشعر فنظمته على لسان ســليمان ، ورؤى أن تكرم كما كرمت (إستير) من قبل فوضع شعرها فى الكتاب المقدس الذى تحول إلى سجل للأعمال الأدبية العبرانية ؟

إن الذى لا شك فيه أن سليمان لا صلة له بذلك النشيد الذى نظم فى أيام المنفى .

وها هو النشيد الذى نسب إلى سليمان عليه الســـلام ظلما وعدوانا ، وقد ظلموه من قبل وقالوا إنه كفر بعد أن بنى هيكل الرب فى أورشليم ، وأن نسبة ذلك النشيد إليه أهون من نسبة الكفر إلى رجل وضع كل جهوده وأمواله لبناء بيت الله :

« ليقبلنى بقبلات فمه لأن حبك أطيب من الخمر . لرائحة أدهانك الطيبة . اسمك دهن مهراق لذلك أحبتك العذارى . اجذبنى وراءك فنجرى . أدخلنى الملك إلى حجاله نبتهج وتفرح بك . نذكر حبك أكثر من الخمر . بالحق يحبونك . أنا سوداء جميلة يا بنات أورشليم كخيام قيدار . كشقق سليمان » .

ويستمر النشيد ، حتى إذا ما أقبل الليل تقول الحبيبة :

« فى الليل على فراشى طلبت من تحبه نفسى ، طلبته فما وجدته . إنى أقوم وأطوف فى المدينة فى الأسواق وفى الشوارع أطلب من تحبه نفسى . طلبته فما وجدته . وجدنى الحرس الطائف بالمدينة فقلت : أرأيتم من تحبه نفسى ؟ فما جاوزتهم إلا قليلا حتى وجدت من تحبه نفسى فأمسكته ولم أرخه حتى أدخلته بيت أمى ، وحجرة من حملت بى . وأحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبأيائل الحقل ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء » .

هل يمكن أن يتصور إنسان أن سليمان الحكيم ــ ولا أقول نبى الله سليمان ــ ينظم مثل هذه الأشعار على لسان امرأة متهتكة لم تكتف بالبحث عن حبيبها فى الليل ، بل أدخلته إلى غرفة أمها التى حملت بها . وما علاقة سليمان بهذا الغزل المكشوف ؟ !

* * *

والغريب أنه رغم الأساطير الكثيرة التى تزدحم بها التوراة والتى تتنافى مع أى منطق بسيط لم يقف أمامها المستشرقون أو الدارسون فى الغرب موقف النقد ، بل اعترفوا بها اعترافا ضمنيا على أساس تقديسهم للتوراة أو العهد القديم بعكس محاولتهم تشويه صورة الإسلام بأدلة بعيدة عن المنطق ودون فحص دقيق لما يدرسون .

وباختصار فإن هذه الدراسة التى كتبها السحار دراسة ذات قيمة ومستنيرة ومتفقة مع منطق العقل ، وقد وفق فيها السحار إلى أقصى حد ، وبذلك استطاع أن يترك للمكتبة العربية مرجعا هاما لكل من يحاول أن يفهم الإسلام على حقيقته ، وأن يفهم أعـداءه على حقيقتهم أيضا .

آخر لقــــــاء معه

لقد التقيت بعبد الحميد السحار أكثر من مرة فى أكثر من حديث ، ولكنى آثرت أن أكتب آخر حديث معه ، على أساس أن هذا الحديث يلقى ضوءا من خلال الأديب نفسه على إنتاجه وفكره ونظرته إلى الحياة .. كما يعطى للقارىء صــورة عن أفكار الرجل فى الميــــادين التى عمل بها .

عبد الحميد جـــوده السحار

عبد الحميد جوده السحار كاتب ومؤرخ واقتصادى ..

وقد كتب عددا من الروايات الطويلة ، وعشرات من مجموعات القصص القصيرة ، وفى الوقت نفسه هو مشغوف بإعادة كتابة التاريخ الدينى للرسالة الإسلامية بأسلوب جديد . إنه يحاول تنقية هـذا التاريخ من الشوائب التى علقت به عبر التاريخ الطويل ، ويحاول أيضا أن يعطى صورة واضحة المعالم عن الإسلام فى ثوب قصصى . وبجانب كل ذلك فهو رجل اقتصاد احتل عدة مناصب اقتصـادية هامة ، آخرها رئيس مؤسسة السينما ..

وأمام هذه الشخصية المتعددة الجوانب كانت محاولتى أن أمسك الخيط الذى أستطيع أن أدير من خلاله حوارا صحفيا . كان همى الأول أن يكون هذا الحوار أدبيا ، لأن هذا فى الواقع هو الشيء الذى سيبقى بلا شك له .. أو عليه !

ولكن كثيرا ما كان يفلت منى هذا الخيط وأنا أحاول أن أضع إطارا خاصا لهذه الشخصية المتعددة الجوانب ، فأجد نفسى فجأة وعلامات استفهام كثيرة تدور فى ذهنى حول علاقة عبد الحميـد السحار الاقتصادى بعبد الحميد السحار الأديب . ثم يقفز إلى ذهنى بلا مقدمات حالة السينما المصرية وهل هى تسير فى طريق مسدود كما يقول البعض ، أو أن الأمل ما زال أمامها لتقدم شيئا ذا بال ؟ وقبل أن أدخل معه فى هذا الحوار ...

فإننى أعتقد أن الفلسفة التى تبلورت من خلالها أعماله الأدبية تكمن فى اعتقاده بأننا يجب ألا نكون فى الحياة مثل دون كيشوت نصارع طواحين الهواء . إنه من العبث أن تتطاول على السماء ، ومن الخير للإنسان أن يتناسق مع وجوده الإنسانى ، مع عالمه الخارجى وعالمه الداخلى ، وأن يسمو فى كل أفعاله ليتصل بعالمه العلوى . إن الإنسان من روح وطين ، فكما أن الجسد يحن إلى الأرض ، ينبغى أن تحن الروح إلى أصلها . فإذا تمرغ الإنسان فى الخطيئة فلا يترك فى الوحل ، بل ينبغى تصوير لحظة الإفاقة وحنين الروح إلى الارتفاع !

* * *

■ كان من البديهى أن يكون سؤالى الأول هو ما مدى استفادة عبد الحميد جوده السحار الاقتصادى من عبد الحميد السحار الأديب ، وبالعكس ؟

وبسرعة يجيب :

ـ فى رأيى أن الأديب لابد أن يكون ملما بالاقتصاد إلمامه بالفلسفة وعلم النفس ، بل وكل علوم عصره . فالأديب الحق هو مرآة العصر . وقد يسرت لى دراستى الاقتصادية متابعة التفسير المادى للتاريخ منذ بداية الكتابة ، فكان ذلك سببا فى إتاحة الفرصة للتفكير فى ذلك التفسير تفكيرا طويلا جعلنى أهتدى إلى التفسير الروحى للتاريخ ، وكان ذلك من أهم الحوافز التى دفعتنى إلى كتابة السيرة . وقد استفدت من الناحية الأدبية فى جميع رحلاتى التجارية التى قمت بها فى أثناء أن كنت أعمل بالمؤسسة الاقتصادية أو رئيسا للشركة العامة للتجارة الخارجية . فقد بعثتنى المؤسسة الاقتصادية إلى غانا فى وقت الانتهاء من حصاد الكاكاو ، وهو وقت ينتظره التجار لتصريف

بضائعهم . وقد حاولت الاتصال بالتجار ولكنهم أعرضوا عنى فالموسم موسم بيع وشراء . وبينما كنت جالسا يائسا فى الفندق جاءنى أحد التجار اللبنانيين وراح يحدثنى . فتطرق الحديث إلى الأدب . فلما عرف أنى أديب دعانى للعشاء ، ودعا التجار السوريين واللبنانيين . وتحدثنا عن الأدب فى تلك السهرة . ثم تطرق الحديث عن التجارة ، وفتح الأدب قلوب التجار التى كانت مغلقة .

وحدث أن سافرت إلى السودان على رأس وفد رجال الأعمال العرب . وكان أول ما فعلته أن ألقيت محاضرة أدبيـــة فى النادى المصرى . وكانت لقاءات بينى وبين رجال الأعمال وكلهم من عشاق الأدب . وقد عدت من السودان بعقود بلغت مليونا من الجنيهات .

* * *

■ إن أدب الرحلات من أمتع الفنون الأدبية . السحار له رحلات طويلة وقد انعكست أحداث تلك الرحلات على بعض أعماله الفنية وإن كان صاغها قصصا ــ وكان النقاد يقولون عن هذه القصص إنها تجارب شخصية للمؤلف . وكانت إجابته عن هذا التساؤل .. وعن الأثر الذى تركته فى نفسه تلك الرحلات أن قال :

ــ كانت أول رحلة طويلة إلى أندونيسيا ، فقد سافرت مع وفد ثقافى وكنت أمثل الجانب الاقتصادى فى الوفد . فلما عدت من الرحلة كتبت « أذرع وســـيقان » وصفت فيها الرحلة ورسمت صـــورا للشخصيات التى سافرت معى . ولم أكتب بإسهاب عن جزيرة بالى ، وكان سكانها يعيشون عراة فى ذلك الوقت لأننى ادخرت انفعالاتى لكتابة قصة « الشعلة المقدســـة » ، ولم تكتب القصة حتى الآن . وعينت بعد ذلك خبيرا لوزارة التجارة والصناعة بالمملكة العربية

السعودية وسافرت مع وزير التجارة ووفد سعودى إلى باكستان لإبرام اتفاقية تجارية بين السعودية وباكستان . وقد كتبت عن هذه الرحلة قصة « وكان مساء » ، وقد أجمع النقاد على أنها تجربة شخصية لأن بطل القصة كان خبيرا مصريا سافر إلى باكستان فى زى عربى مع وفد اقتصادى !

وسافرت بعد ذلك إلى غانا والبرتغال وإيطاليا وشمال إفريقيا والصومال وفرنسا وكل دول أوربا وآسـيا . وقد كتبت مجموعة أقاصيص ظهر بعضها فى « ليلة عاصفة » ولا يزال بعضها تحت الطبع بعنوان « ورحلا عن باريس » . ولما زرت هامبورج ومكثت بها مدة كتبت قصة « جسر الشيطان » وتدور أحداثها فى ريبريان وهو حى الملاهى بين مهنـدس مصرى متدين وفتـاة من فتيات التعـرى ــ الاستربتيز ــ وقال النقاد أيضا إنها تجربة المؤلف !!

* * *

■ والمتتبع لإنتاج السحار يجد نفسه أمام شخصيتين : شخصية عبد الحميد السحار الذى يكتب روايات بالمعنى المألوف ، وعبد الحميد المؤرخ الذى يكتب السيرة النبوية بأسلوب أديب وعقلية مؤرخ .. فما هو الخط الذى يربط بين الشخصيتين ؟

.. إنه يسرح بعيدا .. وخياله يجسد له أحداث طفولته وبدايات الشباب :

ــ كنت من أشقى أولاد الحى فى طفولتى ، أمضى نهارى فى لعب الكرة وفى الذهاب إلى سينما إيديال من الثالثة إلى السادسة ، وكان والدى تاجر بقالة بالجملة فبعد أن يغلق دكانه يجتمع كل مساء فى سلاملك البيت مع إخوانه من التجار وكان حـديثهم يدور حول

الدين . وكانوا يقرءون كل ليلة جزءا من سيرة ابن هشام أو فتوح الشــام للواقدى . وكان على أخوى أحمد وسعيد أن يقرآ بعض صفحات من هذه الكتب . فلما حصلت على الابتدائية أصبح على المشاركة فى القراءة . ومنذ ذلك الوقت فتنت بالسيرة النبوية ، وإن كان يضايقنى عدم تسلسلها تسلسلا زمنيا . ثم قرأت فى السلاملك « على هامش السيرة » للدكتور طه حسين ، و « زينب » لهيكل ، و « أهل الكهف » لتوفيق الحكيم . وقد شغفت بالقراءة ولم أترك حياة الشقاوة حتى عرفت بين الجيران بأننى أفســـد إنسان فى هذا البيت الطيب .

ويتابع السحار حديثه :

ـ وسارت الحياة وسارت الشقاوة إلى جانب اهتمامى بالدين . فلما بدأت الكتابة كتبت عن «أبى ذر الغفارى» ، ثم «فى الوظيفة» ، ثم « سعد بن أبى وقاص » ثم مجموعة أقاصيص «همزات الشياطين» ، ثم « أهـــل البيت » ، ثم فى « قافلة الزمان » وهى قصة كتبتها سنة ١٩٤٧ وسردت فيها قصة أسرتى وقصة حياتى حتى عام ١٩٣٦ .

وظلت أعمالى تتأرجح بين الشخصيتين : شخصية الشاب المتفتح على الحياة وشخصية المتدين ربيب السلاملك . ومن عجب أن أكثر الناس يحسبون أن التدين انغلاق ، بينما التـــدين الصحيح تفتح ورقى ، فهو مرحلة تتجاوز مرحلة الشك وانطلاقة نحو التحرر الروحى الذى لازيف فيه .

* * *

■ كان من أحلام السحار أن يكتب السيرة النبوية فى عشرين جزءا . ولم يبق سوى ستة أجزاء . وأصبح من آماله أن يكتب بعد

ذلك « أسباب قيام الدولة الإسلامية واضمحلالها » أسوة بما كتبه إدوارد جيبون عن قيام الإمبراطورية الرومانية واضمحلالها .

وعندما أسأله : ما العمل الذى كنت تود أن تقوم به ؟ قال على الفور :

ــ لقد فكرت طويلا فى شرح كتاب « الخراج لأبى يوسف » شرحا عصريا قبل أن أبدأ فى كتابة السيرة . فلما بدأت فى السيرة النبوية عرضت على الدكتور إسماعيل صبرى عبد الله أن يقوم بشرح هذا الكتاب القيم فوعدنى خيرا ، ثم لم يفعل . وقد عرضت الكتاب على الدكتور عبد الرازق حسن . وأهمية هذا الكتاب أنه يعتبر أساسا للاقتصاد الإسلامى والميزانية العامة .. فواضعه كان وزير مالية هارون الرشيد ، أى وزير أكبر إمبراطورية إسلامية عرفها التاريخ . فإذا أكملت السيرة النبوية فقد أعود لشرح ذلك الكتاب ، وإن كنت أرجو أن ينهض أحد رجال الاقتصاد بهذا العمل .

* * *

وما أكثر ما كتب فى السيرة النبوية : كتب الدكتور طه حسين وكتب الحكيم كما كتب محمد حسين هيكل والعقاد وغيرهم .. ولكن الجديد فى دراسة السحار أن هــذه الدراسة كتبت بعد أن أنفقت البعثات التبشيرية الأمريكية أموالا طائلة للتنقيب عن مدينة « أور » الكلدانية ، لإثبات أن التوراة تروى حقائق لا أساطير . وقد عثرت تلك البعثات على مدينة « أور » وهى مدينة إبراهيم الخليل عليه السلام . وقد يسرت هذه الكشوف تفسير كثير من آيات القرآن . فالآيات القرآنية التى تحدثت عن إبراهيم رأت أن إبراهيم رأى كوكبا فقال « هذا ربى » ثم رأى القمر فقال « هذا ربى » ثم رأى الشمس

فقال « هذا ربى » . وقد لجأ العلماء إلى سرد بعض أساطير اليهود لتبرير هذا التسلسل الذى لا يتفق مع المنطق . ولكن بعد اكتشاف مدينة « أور » ومعرفة أن كوكب المشترى كان رب الأرباب فى ذلك الوقت ، وأن عبادة الكواكب كانت أرقى العبادات ، وعبادة القمر كانت العبادة التالية فى الدرجة ، وأن الشمس هى آخر العبادات فى الترتيب ، أصبح الترتيب الذى جاء به القرآن هو الترتيب المنطقى الذى يطابق واقع الحياة فى ذلك الزمن .

وقد غيرت لفائف وادى القمر التى عثر عليها فى وادى القمر بالأردن عند البحر الميت كثيرا مما كان يحسبه الناس حقيقة تاريخية . وقد اعتمد السحار على هذه الكشوف عند كتابة السيرة وسردها سردا قصصيا ييسر القراءة على القارىء على ما فيها من جهد ومشقة . وقد ذيل كل جزء بتذييل ناقش فيه ما يحتاج إلى المناقشة حتى لا يفسد السرد القصصى .

■ ما الذى دفع السحار إلى عالم الأدب ؟ ما هى الحادثة التى غيرت اتجاهه ؟ إنه يروى ذلك فيقول :

ـ كنت أفكر فى الزواج وأنا طالب فى السنة النهائية وكانت جارتى فى مدرسة الليسيه ، فكنا نخرج فى وقت واحد لنقف على محطة الترام فى شارع فاروق . وتطورت النظرة إلى صداقة ، وتطورت الصداقة إلى حب . وسافرت صديقتى بعد انتهاء الامتحان إلى الإسكندرية ، وسافرت وراءها ورأيتها فى مايوه فعافتها نفسى . كان عقلى ينشد التحرر وكانت بيئتى ترفض ذلك الانطلاق . فعدت إلى أهلى لأتزوج ابنة عمى التى كانت محجبة فى ذلك الوقت ، واختزنت مشاعرى لأسجلها فى قصة فى « قافلة الزمان » .

■ قلت للسحار : كل إنسان يخرج من الحياة وتجاربها بحكمة . فما هى الحكمة التى تبلورت من خلال تعاملك مع الحياة ؟

ــ « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » . وأنه لن يبقى من الإنسان إلا الحب .

* * *

■ وعندما أسأل السحار عن الشخصية التى بهرته تاريخيا ، والشخصية التى بهرته أدبيا ، وكيف انعكس ذلك على إنتاجه الأدبى يجيب :

ــ بهرتنى منذ نعومة أظفارى شخصية محمد صلى الله عليه وسلم فعكفت على قراءة السيرة . فكنت كلما تعمقت فى دراستى ازداد إعجابى بشخصية الرسول الكريم ، فهو الإنسان الكامل والأسوة الحسنة للبشرية . وقد اخترت جميع كتبى الدينية لشخصيات عاشت فى رحاب الرسول عليه السلام ليكون ذلك تدريبا لى ودراسة حتى يحين الوقت لكتابة السيرة العطرة . وكان عليه السلام إذا عرض عليه أمران اختار أيسرهما .. ولا أستطيع أن أقول إننى أقتفى أثر الرسول فمنذا الذى يستطيع أن يطيق ما كان يطيقه النبى العظيم ؟

وبهرتنى شخصية « شيلوك » فى تاجر البندقية ، فقد وجدت فيها صورة مجسمة لليهود الذين كان أصدقاء والدى يطيلون الحديث عنهم فى ســـلاملك دارنا ، ولليهود الذين عاشرتهم فى حى الظاهر والسكاكينى قرابة عشرين عاما . إننى كنت أتخيلهم واحدا واحدا كلما قرأت تاجر البندقية !

* * *

■ أين أقلام الكتاب بعد النكسة ؟ لا شك أن الأحداث التى تجرى من حولنا فى كل لحظة من لحظات حياتنا ، والمشاعر التى تفور فى أعماقنا ، والصراع الذى نحسه فى نفوسنا أمام الأحداث ، فى حاجة إلى من يصنع من هذه المادة الخصبة أدب حياة .. أدبا ينير معالم الطريق ويعبر عما فى الوجدان . أين هذا الأدب ؟

ويجيب السحار :

ـ أعتقد أن القصة تحتاج إلى وقت طويل للتعبير عن الأحداث الجارية ، وتحتاج إلى روية وتفكير ، وقد كتبت رواية « السهول البيض » عن حرب ١٩٥٦ بعد الاعتداء الثلاثى بسنتين . والسينما تصور الحرب العالمية الثانية هذا العام . وفى رأيى أن هذه الأفلام تكون أكثر واقعية مما لو أنتجت عقب الحرب مباشرة .

■ « نحن جيل تتكون على يدنا البدايات الحقيقية للفن الحقيقى » ، كلمة من عشرات الشعارات للكتاب الجدد ، فهل هناك كتابات طليعية وأخرى متخلفة ؟

إن للسحار ردا طريفا على هذا السؤال :

من رأيه أنه ليس هناك اتجاه طليعى أو اتجاه متخلف ، بل هناك أدب جيد وأدب ردىء فى كل العصور .. فقد نجد شعرا أندلسيا أفضل من كثير من الشعر الحديث ، وقد نجد قصصا من العصر الفيكتورى أروع من قصص كتاب الإنجليز المعاصرين . وليس هناك شبان وشيوخ فى الأدب ، فشبان اليوم هم شيوخ الغد . والعبرة بالإنتاج وعمقه وغزارة تجاربه . وليس على الشبان من حرج فى أن يدعوا ما يدعونه .. فهذه سنة الحياة !

* * *

■ كل إنسان تعتريه لحظات من الأمل ولحظات من الألم ، لحظات من الحزن ولحظات من الفرح ، حتى إنه روى عن الرسول الكريم قوله : الحزن رفيقى . ولكن الإنسان يبحث دائما عن العزاء ، فما هى الحكمة التى تتمثلها فى اللحظات التى تبدو على غير ما يرام ؟

ــ « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير .. لكى لاتأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » .

* * *

والحديث مع السحار لا بد أن يسوق إلى السحار الذى يتولى اليوم رئاسة مؤسسة السينما . لقد تولى مسئولياتها .. وكان لا بد لى أن أسأله سؤالا واضحا صريحا :

■ بالنسبة إلى السينما فى مصر إلى أين تسير ؟

ويبتسم السحار ، ويفكر قليلا ثم يقول :

ــ إن الثقافة عموما تحتاج إلى صبر ، فلا يمكن لأجهزة الثقافة أن تنهض بعبء تثقيف الشعب وحدها ، فأنا لا أومن بحقن الثقافة ، بل لا بد أن نرتقى فى كل الميادين فيرقى ذوقنا الفنى ويرقى الفن بالتبعية .

وأنا أعتقد أن السينما تسير فى طريقها ، فإن كانت قد تعثرت فترة فما ذلك إلا لأن بعض المتحمسين أرادوا أن يخرجوها عن خط سيرها . وأنا على ثقة من أن الســـينما فى الموسم القادم ستثبت وجودها ، فإننا قد بدأنا فى أفلام جيدة ، وستشارك أكثر من دولة فى إنتاج عالمى ..

لقد قدمنـــا خدمات لشركات إيطالية ، وقد تم تصوير فيلم « الدورية الانتحارية » وسيعرض فى سبتمبر القادم عندنا ، وفيلم « الجحيم أتى ويعود » ، ونعد لتصوير « قرية ظالمة » بالاشتراك مع شركة ديمكس الإيطالية . إن السينما ستنطلق إلى هدفهـا ، وآفة السينما أن كل من يدخل فيلما مصريا ينصب نفسه ناقدا فنيا ويحسب أن النقد وظيفته التحطيم والتحقير ، فيأخذ فى رمى السينما المصرية بالحجارة دون تدبر وتفكير .

■ وثمة سؤال أخير يجيبنى عليه بقوله :

ــ أملى أن تسود المحبة الجميع ، وأن يحب كل واحد منا لأخيه ما يحبه لنفسه ، فالأرض تكفينا جميعا أحياء وأمواتا ، وأن تتكاتف لخير الجميع ، وألا تتصارع تصارع الوحوش على لقمة العيش ، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .

وبعـــــد ..

هذه دراسة سريعة عن عبد الحميد جوده السحار كمفكر إسلامى، وهو فيما كتب فى المجال الدينى قد ترك مرجعا هاما من مراجع السيرة ومراجع هامة للفكر الإسلامى فى نفس الوقت .

وكان أملى أن أكتب دراسة شاملة عن عبد الحميـــد السحار ، دراسة تتناول بجانب إنتاجه فى المجال الدينى الإنتاج الأدبى أيضاً ، فهو كأديب أضاف الكثير فى مجال الأدب بما كتب من روايات وقصص قصيرة ، وقد كان فى إنتاجه القصصى رائدا من رواد القصة ، يكتبها بأسلوب رشيق للغاية . كما أن حبكته الفنية فى غاية التناسق ، وكانت مضامين هذه القصص مستمدة من واقع حياة مجتمعنا المصرى فى مختلف تطوره وفى مختلف طبقاته .

وقد ظلم السحار فى حياته ! . لم يتناول النقاد هذه الأعمـــال بالدراسة والتحليل ، وكان موقفهم من إنتاجه الأدبى موقف الصمت . وكثيرا ما سألت نفسى لماذا هذا التجاهل مع أن الرجل قدم أعمالا ذات قيمة فى المجال القصصى سواء أرضى النقاد أم لم يرضوا ؟ هل يرجع ذلك إلى عدم انتمائه لشلة من الشلل ؟ أو لعده تملقه النقـــاد على أساس أن العمل الفنى يفرض نفسه ، وأن القارىء هو الحكم الأول والأخير فيما يعرض عليه من إنتاج ؟

مهما يكن السبب فلم يأخذ الرجل حقه كأديب وفنان ، وأملى أن أوفق فى كتابة دراسة أخرى عن أعماله الأدبية .

ولست أدرى لماذا تداعت إلى ذهنى كلمة الشـــيخ مصطفى عبد الرازق :

ــ « غير أن المصريين متهمون بأنهم يبخسون فضل أهل الفضل منهم ، على حين يسنحون الغرباء تقديرهم جزافا . فواجب علينا أن نبرىء من هذه التهمة قومنا ، ومن وسائل ذلك أن نحيى ذكرى العظماء من أسلافنا ، وأن ننصف اليـــوم من قد يكون التاريخ لم يعطهم ما يستحقون من إنصاف » .

ولعلى فى هذه المحـــاولة قد وفقت لأداء نوع من الوفاء نحو إنسان كنت أعزه وأقدره .. كفنان وأديب وعالم وإنسان فى نفس الوقت ..

والله ولى التوفيق .

« مأمون غريب »

السيرة النبوية ـ محمد رسول الله والذين معه

تاليف عبد الحميد جوده السحار

١ ـ ابراهيم أبو الأنبياء	اكتوبر ١٩٦٥
٢ ـ هاجر المصرية ام العرب	مارس ١٩٦٦
٣ ـ بنو اسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤ ـ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥ ـ قريش	مايو ١٩٦٧
٦ ـ مولد الرسول	يولية ١٩٦٧
٧ ـ اليتيم	اكتوبر ١٩٦٧
٨ ـ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩ ـ دعوة ابراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠ ـ عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١ ـ الهجـرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢ ـ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣ ـ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤ ـ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥ ـ صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦ ـ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧ ـ غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨ ـ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩ ـ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠ ـ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

رقم الإيداع ٣٥٢٥ / ١٩٧٥